
عمرو خليل
توبة الحجّاج
رواية
دار البشير

تَوْبةُ الحجّاج

عمرو خليل

عدد الطبعـات: الطبعة الأولى

رقــم الإيـــداع: ٧٧٦٧ / ٢٠١٩

التوزيع



القاهره - جمهورية مصر العربية

هاتف: 01012355714 - 01152806533

E-mail: elbasheer.marketing@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة



جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم، حسب قوانين الملكية الفكرية، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعاده نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

***

إهداء

إلى روح الشيخ محمود حنفى

جار وصديق واخ

رحمه الله وعفا عنه

***

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ

سورة المؤمنون

***

(١)

ارْجِعون

يجثُم جبلُ المقطّم- بثقله الضّخم- على صدر الصّحراء الشرقية لنهْر النّيل، فاختفتْ تحتَه، ولم يظهرْ لها أثر، واسْتكانت لثقلِه إلّا مِن أطرافٍ برزت حولَه كأنّها متنفّسٌ لها، لكنّها صامتةٌ صمتَ القبور، كتلك التي سكنت جوفَها كأنّها تخاف أن تنبس ببنْت شفة، فيهوي الجبل العظيمُ على صدْرها بصُخوره فيدكّها، فهي صحراءُ مستكينة دائمًا صامتة، خاضعة، تلفّها الرّهبةُ ويشملُها الخوف، لا تستجيب لمشاكساتِ الرّياح، فتتمسّك برمالها حتّى لا تثير الغبار؛ فيزعج متنفّس المقطم.

ارتدى الليلُ رداءه الأسود كعادته، وتوغّل في الوقت، فسكن كلّ حيّ مكانه، حتّى الهوامّ والحشرات باتتْ بشقوق الجبل لائذة، وراح الهواءُ- كعادته- يداعب ذرّاتِ الرّمال مشاكسًا؛ لعلّ الصحراء تخرج عن خنوعِها للمقطّم فتُفرج عن رمالِها فيحملها وينثرُها في وجه المتغَطْرس الجبّار، لكنّه وجدَ الخنوعَ ملازمًا، فرضي بالمشاكسة على هَوَادة.

لكنّه ما لبث أنِ اكْفهرّ فجأة، وزادت حركةُ الهواء على أثر سخونةٍ سرَتْ فجأة فيه، تتولّد من برق شقّ السّماءَ دونَ أيّ إنذار، وتولّدت دوّامة هواءٍ ما لبث أن تحوّلت إلى إعصارٍ يعصف بكلّ شيء غضبًا، فتفلّتت بعضُ حبّات الرّمال من تحت سفح المقطّم، وأرغمتِ الصّحراء أن تفرجَ عن كثيرٍ من رمالها، فحملها الرّياح غبارًا طبقاتٍ بعضها فوق بعض، حتّى صارت سحابًا متراكمًا ثقيلًا أضاف لظلام اللّيل ظلماتٍ، بعضُها فوق بعض، وأضحتِ الرّؤيا لا تكاد تبين إذا أخرجَ حيٌّ يدَه لم يكدْ يراها.

اختفى المقطم بحجْمِه المهول، وهيبتِه العظيمة كأنّه تلاشى من الوجود ابتلعه الظّلام، زمجرتِ الرّياح غضبًا، وقرقعت السّماء مهدّدة ببرقِها ورعْدِها، ولطمتِ الرّياح شواهدَ القبور؛ فصرخت متألّمة تستغيثُ بساكنيها خوفًا من تحطّمها.

تململَ العملاقُ في جلسته، وتحرّك يبحث عن متنفّسٍ أو مهرب من ذرّات الرمال التي أخذت تلفحُ وجهَه بقوّة وعنف، كأنّها سهامٌ مصوّبة نحوه، فضجّ الفضاءُ بتكسّر بعض صخوره، وانْهارت تهوي على الصّحراء متفتّتة، مشهدٌ رهيب مهيب كأنّها معركة شرسَةٌ نشبت بين الرّياح والصّحراء والمقطم، دارتْ بين ثلاثتهم في ظُلمة الليل الحالكة.

انخلعتِ القلوبُ من هوْل الموقف، وأرعدت الفرائص من بشاعةِ المنظر، وخارتِ النّفوس؛ فلاذَ كلّ حيّ بداره، وانتشر السكون في الوجود.

ما كان يتجرّأ حيٌّ أن يسيرَ فِي هذا المكان، أو فِي تلك السِاعة، ظلامٌ ومطرٌ

ورعدٌ ورياح، لكنّه كان هو، كأنّه جاءَ من العدم أو انشقّت أحدُ القبور الرّابضة في سفح المقطم عنه، أو خرج من خلف تلك الصّخور التي تشقّقت، خرج يخطو بقدميْه الكبيرتين العاريتين.. خطى ثقيلة وئيدةٌ، تثير غبارَ الطّريق حوله، يجرجرُها فتتعثّر بحجارة الطريق تارةً أو شاهد قبرٍ على جانب الطريق. كان الضّباب يُخفيه يلتفّ حول جسدِه الضّخم المنهك كالمريض المتهالك، كبير الرّأس، أشعث شعرُه، مهوش شعْر الذّقن، غليظ الشّفتين، جاحظ العينين رغمَ ذرّات الرمال، إذا ما رآه حيّ يفْزعُ منْه ويولّي هاربًا، على جسده أسمالٌ بالية، تطيّرها الرّياح، تكاد سوأتُه تتكشّف، لا هي بالسّاترة له ولا بالكاشفة، كأنّها بقايا أكفانٍ مهترئة.

سارَ في بطء متضعْضِع الجسد، يكاد ينكفئ في مشيته، لكنّها كانت بخطى ثابتةٍ راسخة ما استطاعتِ الرياحُ أن تقلعها عن الطريق، أو تهزّها، لا يلتفتُ إلى ما حوله، ثابت الجنان، يفرّ الفزع من قلبه والرّهبةُ من نفسه.

كلّما انقشعتْ سُحب الغبار عنْ وجه القمر المكْتَمل سقطَ ضوؤه عليه يُنير له الطريق، ويظهر هو كأنّه شبحٌ هارب من قبرٍ يتّجه صوب الحيّ.

***

(٢)

سحنون

في حجرةٍ أشبهُ بالعشّة، جدرانُها من أعواد الخوص التي نكتتْ بجوار بعضِها البعض في الأرض كأنّها أوتاد، ثمّ شُدّت بحبال من اللّيف كالضّفيرة؛ فضمّت إلى بعض لتسبلَ سترًا عن أعينِ المتلصّصين على مَن بالدّاخل، بوسطها- بالضبط- نكت جذعُ شجرٍ قديم ناشف، كان داعمًا لسقفٍ من جريد النّخيل، يحفظه من الانْهيار، معلّقٌ عليه مشنّة مصنوعةٌ من خُوص وأعوادِ أشجارٍ لدِنَةٍ يوضعُ فيه الخبزُ بجوار بعض ملابس تبدو قديمة مرقّعة في بعض الأماكن.

التّرابُ يفترشُ أغلبَها إلّا موضعًا لجذع شجرةٍ كبيرٍ نائم على جنبِه، جعله كسريرٍ، فرشَ عليه جلدًا قديمًا لخروفٍ نُحِل صوفُه من الأطْراف فوقَ فراش بالية، عليه وسادةٌ محشوّة ليف.. وبجوار باب الحجرة سكنت جَرَّة كبيرةٌ من الفخّار، واسعة الفم، يُوضع فيها الماء لتبريدِه والاحتفاظ به للشّرب، يطلق عليها زير، وأحد جانبي العشّة وضعتْ صخرتان كمقاعدَ للجلوس، وأخرى أمام الحجرة، يتدلّى من سقف العشّة حبلٌ بطرفه قنديل.

وبوسطِ الحجرة- تمامًا على الأرض- مجمرةٌ متوهّجة، يتطاير الشّررُ منها كلّما هبّ عليها الهواء، وقبَعَ سحنون بقربها يلوذُ بنارها من ذلك الصّقيع الذي سقط فجأةً على القاهرة، رغم انْصرام فصل الشتاء.

الرّياحُ تنفذُ من بين عيدان الخوص، وتتلاعب بجريد سقفها، يأرجحُ القنديلُ المعلّق بسقف العشّة، فترقص فتيلتُه المشتعلة، فيتأرجح الضياءُ مثيرًا خيالاتٍ وأشباحًا تمرحُ بالحجرة تثير في نفسه الرّهبة.

كلّما فتحت الرّياحُ فرجةً في الجدار أسرع بغلقِها بحشر بعض ملابسِه القديمة، أو نكْتِ أعوادٍ خوصٍ بها، ثمّ يتركها ويُهْرع إلى فرجة أخرى أحدثتْها الرّياحُ بالسّقف فيثبّت جريدها وعصيّها برباط، أو يضعها فوقَ بعض، ثمّ يُهْرع إلى مجْمَرته يحوط نيرانَها أن تتشعّث، ويضيف عليها خشبًا.

ظلّ هكذا طيلةَ ساعتين، أو أكثر، يدور في الحجرة بين الجدران والسّقف ومجمرةِ النّيران؛ فأصابه الدّوارُ والدّوخة من فرط ما بذله من جهدٍ، يخاف أن يتركَ الرّياح تتلاعب بسقف وجدران الحجرة فيجدُ نفسَه في العَراء، أو يترك المجْمرة فتنطفئ، فكان يذْكِيها بقطع الخشب، أو يتطاير شررُها فتحرق حجرته، وهي كلّ ما يملك؛ فكان يحوطها ويرعاها، حتّى إذا هدأت فورةُ الرّياح أخذت أنفاسُه تهدأ فاتّجه إلى خلفِ سريره فأخرجَ قارورةً من زجاج، وتناول قطعة من الخشب مجوّفة، مبرودٌ طرفاها، قرّبها من فيه، ثمّ نفخ فيها بقوّة أكثر من مرّة، ثمّ نظر من خلال تجويفِها من أحد طرفيْها موجّهًا طرفها الآخر إلى حيث القنديل، فرأى ذُبالتَه تتراقص من خلالها، ثمّ تناول بوصة، فعلَ مثلَ

ما فعل بقطعة الخشب المجوّفة، ثمّ أمسك بمجمرةٍ صغيرة فعل بها كمثل الخشبة والبوصة.

توجّه إلى الزّير، تناول الكوبَ الموضوع على غطائه، كشف الغطاء، أغرق الكوبَ في تجويف الزّير، ثمّ أخرجه يقطر ماءً، وهو ممتلئ، أعاد الغطاءَ إلى الزّير، صبّ الماء في القارورة الزجاج حتّى امتلأ ثلاثةُ أرباعها، ترك الكوبَ على غطاء الزّير، سدّ فمَ القارورة بجلدٍ فأحْكم إغلاقَها، نكتَ فيها قطعة الخشب، ثمّ بجوارها قطعة البوص، ثمّ ركّب بقطعة الخشب المجمرة الصّغيرة المجوّفة، قرّب فاهُ من طرف البوصة، أخذَ نفَسًا، هزّ رأسه رضًا، تركها على الأرض بجوار أحد المقاعد، ومن تحتِ فراش السّرير أخرج لفافةً، بعناية وضع بعضًا مِن محتواها على فوّهة المجمرة الصّغيرة التي وضعها بإحكام على طرف الخشبة المجوّفة، فكوّنت له نرجيلة، وضعَها على الأرض، تناول سيخًا من الحديد مبطّطًا، مثنيًّا، مجموع طرفاها بجوار بعض، فتناول بها قطعًا من الخشب المشتعل، لكنّه توقّف كأنه تذكّر شيئًا، اتجه إلى جذع الخشب المثبّت بوسط الحجرة ومعلّق عليها المشنّة، شبّ على أطراف أصابعه، وفرَدَ ذراعه وأصابعَ يده عن آخرهما فتحسّس فرجةً في طرف الجذع من أعلى حتّى عثرَ على لفافةٍ صغيرة، أخرجها، نظر إليها بودٍّ قبل أن يضعَها فوق ما وضعه على المجمَرة الصّغيرة، ثمّ وضعَ قطعًا من الخشب المُشتعل على رأس نرجيلة بعناية، ألقى الماشة من يديه، حوّط أصبعاه فمَ البوصة، ثمّ قرّبها من فيه فالتقمَها، جذب أنفاسًا قصيرة متتالية حتّى بدأ دخان يخرجُ من فم البوصة، وفمِه، حتّى إذا امتلأ فيه بالدّخان نفثَه بتلذّذ.

كانت المجمرةُ أمامه يستدفئ بها، ويقلّب وقودها، ويأخذ من جمْرها لإشعال نرجيلته كلّما احتاجت إلى جمر، اندفع الدّخان من فم النّرجيلة فيلتقمه بفيه، ثمّ يرسله إلى صدْره، فيتخلّل جسده، شعرَ فيه بلذّة وبدبيب السّعادة يسري في أوصاله، فراح يبتسم لغير سبب، ثمّ راحت تتّسع ابتسامتُه رويدًا رويدًا، حتّى أضحت ضحكات، ثمّ صارت قهقهاتٍ، وأخذَ يتمايل كأنّه يحاكي خيالاتٍ يراها أمامه وسط سحبِ الدّخان التي ينفثها أمامه، فكوّن منها سحبًا تكاثفت، ثمّ تراكمت، فراحت تتشكّل بأشكال مُتداخلة، ليس لها معالم، فدقّق النّظر بها فتراءت أمامه تتمايل وتنثني، وتشاغله، فراح يسحبُ النّفس العميق من نرجيلته، ثمّ بعد أن يكتمَه لبرهةٍ يطردُه بقوّة فينثلّ الدّخان هاربًا من فيه، وفتحتي منخاره، فتشكّل أمام ناظريه خيالاتٍ لشخصيّات محبّبة إلى قلبه، تنثني في دلالٍ، وتتمايل في دلع، تقترب تارةً وتبعد أخرى، فينجذب معها ويتمايل، وتلفّ سحبُ الدّخان ناظريه فيشعر أنّه في دنيا ثانية، ويهيم بها فرحًا وسعادة، فيمدّ يدَه أمامه يلمسها.. يريد أن يحتضنَها، ثمّ أخذ يتمايل معها، ويَشْرع في تحريك جذعه رقصًا وهو جالس، وكلّما خفّت سحبُ الضّباب أمامه كلّما يزيد من وقودها، حتّى أضحى لا يشعرُ بالرياح وهي تتلاعبُ بعشّته فتُحرّك عرشَ العشّة، وكادتْ تطيّرها، وبأركانها، حاولتْ أن تقلعها من مكانها

لكنّها عندما فشلت اكّتفت بتحريكها، واللّعب بها، والضّربِ على الباب المصنوع من الخشب والبوص وبعض الخيش يسدّ فراغاته، ضربات عنيفة، حتّى وجد بابَ العشّة يندفع مفتوحًا على أثر ضربةٍ قويّة كاد ينخلعُ لها، ومع اندفاع الرّياح إلى داخل العشّة بددت سحبُ الضّباب فتشتّت الدخان، وأخذت الرؤيا تتبيّن شيئًا فشيئًا، حتّى خيّل إليه أنه يرى الخلاء والمقابر من خلفها من مكانه بالعشّة.

اندفعتِ الرّياح بكلّ قوّتها إلى داخل العشّة، كأنّ بينها وبين محتويات العشّة ثأرًا قديمًا تريدُ أن تقتصّه، فكادتْ تقلبُ أركان العشة وتُطير ما بها من أثاثٍ قليل، لولا أنّ مدخل الباب سُدَّ بجسدٍ رآه ضخمًا عريضًا فسدّ عليه مجالَ الرّؤية، ومنع الرياح اقتحامَ عشّته والعبثَ بها، فشعرَ بالامتنان لهذا الجسد، ثمّ شرع عائدًا يرصّ أحجار الدخان فوق نرجيلته، ثمّ عاود تنفّس دخانها.

تحرّك الجسدُ في خطوات متضَعْضعة قليلة إلى الأمام، ثمّ دخل في عِراكٍ مُحتدم بينه وبين الرّياح، التي مازالت تصرّ على اقتحام العشّة، ويريد هو أنْ يغلق دونَها الباب، حتّى فاز هو في النهاية؛ فردّ البابَ ودفع مزلاجَه يغلقه، يمنعُه من الفتح.

التفتَ باتّجاهه، هالَهُ منظرُه الضّخم المشوّش المنكوش المعفّر؛ فصُعق منه.

***

(٣)
علياء

باضطرابٍ أخذت تطرقُ أرض الحجرة الرّخامية بكعْبِها المُحنّى جيئةً وذهابًا، لا تملّ ولا تتعب، ثمّ تهْرَع بين الفينةِ وأختها تنظرُ من خلف شبّاكها المشغول بالمشربيّة السّاترة لمَن بداخل الحجرة، الكاشف لمَن خارجها، تثني جذعها اللّدن، فتتجسّم منامتها حول جسدِه؛ فينبئ عن أنوثةٍ مُكتملة ناضحة، تثير فتنة وحُسنًا.. تقترب أكثرَ من الشّباك فتثني جذعها، فينسدل شعرُها النّاعم الطويل، فيكاد يحجبُ رؤيتها فترفعُه بيدٍ بيضاء كالمرْمَر، طريّة كالحرير إلى مكانه...

كلّما صرخ الرعدُ مزمجرًا، وأضاء البرقُ الحجرةَ، هُرِعت إلى مشربيّتها تنظرُ إلى الشارع الخالي من المارّة، وتظلّ مطلّة عَلّه يمرّ مَن ترجوه فيطمئنّ قلبُها، وحينما يطول الانتظار ويملّ منها ترفعُ رأسَها إلى السّماء ترجوها أن تكفّ عمّا ترسله من ماء، وتُصمت تلك الجلبةَ التي تحدثُها، أو على الأقلّ تحفظ مَن ترجوه وتأملُه من بطشها فيقابلها سحابٌ مركوم لم يحدثْ في أشدّ ليالي الشتاء شتوية.

ابتعدتْ علياء عن الشّباك بخطى بطيئة متفكّرة فيما أهمّها، فغاصت في خاطرها، تحسبُ وترجو.. تخافُ وتتمنّى، فانقضى من اللّيل عتمتُه وفحمتُه، وأضحتْ في السَّحر وهي على مشارف صبحٍ يُشرق بعدَ فجر، بدأت خيوطُه البيضاء النّسيج، وهي مكانَها لم يضطرّها الكَرَى أو يجبرُها انكدادُ جسدِها إلى الهُجوع.

اندفعَ بابُ الحجرة ببطء مُصدرًا صوتًا وهو يفتح، فانتشر ضوءٌ أصفر صادرٌ من ذُبالةٍ تكاد تخبو كأنّها شيخ مريض يوشكُ على الوفاة.

دخلتْ أمّها يسبقها رنينُ أساورها المتحلّقة حول معصمٍ أبيض لساعدٍ أملسِ الجلد، ناعم، كشفتْ عنهما حتّى المرفقيْن، يقطران ماءً، وخمارُها منسدل عنْ مفرق رأسها، مشوّشة بعضُ الشّعرات، كاشف عن بعض الخصْلات من تحت غطاء الرّأس لنعومته؛ فبانَ أسودَ كليلٍ أسدلَ عتمتَه على رأسها، فلم يفارقها.

لم تكنْ سعدية أقلّ جمالًا من ابنتها علياء، ومَن يراهما معًا لا يصدّق أنّ هذه أمّ تلك؛ لفارق السّن القليل بينهما، ولأثر النّعيم عليهما.

انتفضَ جسدُ سعديّة من لفحة هواءٍ بارد هجمتها من خلال الشباك المفتوح، فهُرِعت إليه تغلقه تمنع دفقاتٍ أخرى من برْد الشتاء أن تتسرّب إلى حجرة ابنتها وهي في أشدّ العجب من شتاءٍ في غير فصْلِه.

انتفضتِ الأمّ أكثرَ من مرّة وهي تفرد أكمامَ ردائها فتحجب جمالَ ساعديها اللذين ينافسان بريقَ أساورها علّها تستجلب الدّفء لجسدِها البضّ وهي تقول:

- كيف تتحمّلين هذا البرد القارص؟

أفاقتْ علياء على سؤال أمّها التي فوجئت بها بجوارها.

- علياء، أنت مازلتِ يا بنتي سهْرانة؟

رسمتِ الدّهشة ملامحها على وجْه أمّها قبل أن تكمل:

- الفجرُ يوشكُ على الأذان.

ثمّ صمتت متفرّسة.

- لماذا لم تنامي؟

اتّجهت إلى الشّباك تنظر من خلاله قبل أن تجيب:

- هذا طقسٌ لا يؤذنُ بنوم.

- ولماذا يا بنتي؟

تنهّدت علياء كأنّها تتنهّد من بئر سحيق، وتمنّت أن تفضي لأمّها بما شغلها وأطارَ النومَ من جفنيها، لكنّها تراجعت خجلًا، ثمّ أجابت باعتيادية:

- الطّقس مُخيف، يزمجر ويرعدُ في غير أوانه.

أجابت أمّها، بعد أن ألقت نظرةً خاطفة حيث الشّباك، فشعرت براحةٍ حيث ألفته مغلقًا كما تركتْه.

- عندك حقّ علياء، بالنّهار كان صيفًا قائظًا، وبالليل بردٌ قارص!!

صمتتْ هُنَيهة، ثمّ أكملت:

- لكنْ لماذا لم تتدثّري بغطائك تتقي البرد؟

أجابتِ ابنتُها دون وعي:

- لم أشعرْ ببرد.

- عجبًا، مع أنّ البرودة شديدة!

انتبهتْ علياء لما قالت، فأكملت:

- حالُ الطقس أذهبَ بي..

ثمّ عادت لحالتها تهمّ أن تتّجه إلى الشباك فتفتحه وتنظر، لكنّها منعتْ نفسَها بصعوبة، فبِدا عليها اضطرابٌ لم تلحظْه أمّها.

- دفّئي قليلًا من الماء لتتوضّئي؛ فقد لاح الفجرُ على الأذان، وأنا سأذهبُ لأتركّع قليلًا قبل الأذان.

اجابتها علياء بسؤال ينمّ عن أنّها لم تسمعْ ما قالت أمّها.

- هل يا أمّي مثل هذا الطّقس يكون بالشّام؟

أوقفت سعدية يدَها على مقبض الباب متفكّرة في سؤال ابنتها، ثمّ دارتْ على عقبها مواجهةً إيّاها:

- لكلّ بلدٍ ما يناسبها من طقس، وربّ قريةٍ بقربنا لا يمرّ بها السّحاب الثّقال.

وكأنّ إجابة أمّها أزاحتْ عنها بعضَ ما يعتملُ في صدْرها، فأضحتْ تتنفّس برويّة وهدوء، حتّى جاءها سؤالُ أمّها:

- ولماذا الشام؟

إضطربتْ علياء، فأضرج وجهُها بالحُمرة قبل أن تجيب:

- لا شيء، سؤالٌ خطرَ ببالي.

دارتْ أمّها مرّة أخرى على عقبيْها مُنصرفةً وقد ارتسم على وجهها الهدوء، كأنّ قلبها فطنَ لمغْزى سؤال ابْنتها، فقالت وهي تتناول مقبضَ الباب، تديرُه للخروج:

- حفظَ الله أهلَ مصر والشام.

صمتتْ هُنيهة، ثمّ أكملت وهي تضغطُ على حروفِ ما تقول:

- وما بينهما.

- اللّهم آمين.. يا ربّ.

تمتمتْ علياء بلهفةٍ مردّدة أكثرَ من مرّة.

***

(٤)
سرحال

رغم السّتائر المخمليّة الثقيلة المُسْدلة على شرفاتِ الحجرة، لكنّ صوتَ الرّعد مزّق نسيجَ أمانه، ونفذَ يُرعب أوصالَه، فهبّ مذعورًا مرتعبًا.. ألقى بالغطاء الرّقيق الذي كان يتدثّر به، وهو يتلفّت حوله في اضطراب، وعلاماتُ الهلع تلوّن وجهَه، تتردّد أنفاسُه بصوت مسموع يحشرجُ الخوف كلماتِه؛ فلا تكاد تُبين.. تأخّر الخدم عن موافاته في أوّل الأمر، فظلّ على حاله حتّى خيّل إليه أنّ ساعته قد دنت، فاختنقَ صدرُه واحتقنَ وجهُه، وأربدَ وأزْبدَ فمه، وراح يتخبّط وهو يزحف ملقيًا بجسده من فوق السرير الوثير، فساعدتْه نعومةُ الفراش فانزلقَ من فوقه سريعًا، حاول أن يقفَ على قدميْه فلم تسعفاه، فأخذ يزحفُ على بطنِه، في طريقه تخبّط بخوانٍ فوقه مزهريّةٍ، واصطدم بمنضدةٍ فأوقع كأسَ ماءٍ، تحسّر عندما رأى ما فيه من شرابٍ أريق، عانى كثيرًا حتى وصل مع آخر أنفاسه له إلى الباب، رفع جسدَه بصعوبة بالغة، تعلّق بمقبضه.. طاوعَه بيُسر، انفتح الباب، سقط هو بجواره على أرضيّة عارية من البساط؛ فكان لسقطتِه دويّ.

* * *

ظلّ في مجلسه متّكأ، وفى يده كأسُ ماء كلّما شعر بجفاف حلقِه رشفَ رشفةً، ابتلعها سريعًا، ثمّ يتبعُها برشفةٍ أخرى يلوكُها في فيه قبل أنْ يبتلعها، وعيناه مصوّبتان على مدخل القاعدة الكبيرة، حتى لاح على البُعد شخصٌ طويل، يأتي إليه مهرولًا، يكاد ينكفئ في ردائه، حتّى استوى أمامه، خفّت أماراتُ الكمد من فوق صفحةِ وجهه قليلًا عندما رآه، لكنّه لم يمتنعْ عن عتابه:

- لمَ تأخّرت يا شيخ؟

- كنتُ أصلّي يا مولاي الفجر، ولقد تعجّبت أنّي لم أجدْك بيننا.

تلفّت حوله وكأنّه أفاق إلى حقيقةٍ كان يغفل عنها، فانفكّت إحدى عقدِ الخوف من فوق محيّاه شيئًا قليلًا وهو يتمتم:

- ألم يكنِ اليومُ يوم القيامة؟

رغمَ اندهاش الشّيخ عتمان لمَا قال سرحال الملك، لكنّه أجاب كالعالِم ببواطن الأمور:

- لا يا مولاي، فليس اليومُ يومَ جمعة.

- جمعة!.. آه، جمعة.

ردّدها مخاطبًا نفسه، ثمّ مسح على وجهِه بكفّ يده وهو يفتح صدرَه لشهيقٍ

كبير أخذه ثمّ أسكنه صدرَه، ثمّ أخرجه في هدوء:

- الحمدُ لله، الحمد لله.

- خيرًا يا مولاي! هل رأيت حلمًا أزعجك؟

- لا شيء إلّا أنّي قلقتَ بعض الشيء من حالة الطقس.

- طيّب الله خاطرَ مولاي، هذا هو حالُ الطقس، دائمًا متغيّر.

سرحَ سرحال ببصره فتخطّى موضع الشّيخ عتمان الذي ربّع يديْه فوق بطنه، وطأطأ رأسَه في خشوع:

- وهذا ما أخافه.

رفعَ رأسَه ينظر إلى سرحال يقطع نظرتَه حركةُ جفنيْه حتّى لا يحدّ النّظر إلى مولاه، وهو يعمل الفكرَ السّريع في فكّ أغوار ما قال سيّده، وعندما لم يفلحْ أجابَ يسدّ ثغراتِ الصّمتِ بينهما:

- لا يخافُ مولاي من بعض أمطار ورعدِ سماء؛ فعدلُ مولاي يحفظه من النّوائب.

شابتِ الرّاحة وجهَ سرحال فأخذت أنفاسُه تنتظم، فقام من فوق كرسيّه ثمّ شبّك يديه خلف ظهرِه وأحْنى جذعَه قليلًا، والقى ببصره على الأرض، فظهرت شخصيّته القياديّة، ثمّ قال كأنّه يذكّر الشيخ عتمان ويجترّ ذكرى جميلةً على نفسه:

- تعلم أنّي تملّكت هذه البلاد بقوّة ساعدي بعد صراعٍ طويل مع الملك السّابق، الذي أستأثر بالحكم لنفسه، ثمّ ملكت زمامَها وأضفتُ إليها قطعًا من أرض الشّام وأرض العماليق.

رغمَ يقين الشيخ عتمان من زوالِ عصر العماليق منذ أمدٍ بعيد، إلّا أنّه التقط خيطَ المفاخرة من بين ثنايا كلماتِ سرحال فربط الخيطَ بثنيّته، وأخذ يشدّ المديح:

- مولاي قادرٌ على بلاد الفرنجةِ لو أراد.

توقّف سرحال عن المشي، ثمّ التفتَ إلى الشّيخ عتمان وهو يسأله:

- حتّى متى؟

دونَ تفكير أجاب عتمان:

- متّع الله مولاي بطول العمر، وحكم ممدّ ممهّد.

فأجابَه سرحال متسائلًا في حدّة:

- مَن يحكم تلك المملكةَ بعدي؟

- طيّب الله خاطرَ مولاي، ما الدّاعي لكلّ هذا؟

- الأمر بعدي يا عتمان، إمّا إلى تشتّت أو إلى أحد أعدائي يثبُ على ملكي ويجلسُ على كرسيّ، ومَن يعلم قد ينكحُ نسائي وجواريّ، ثمّ يبولُ على قبري وهو يصرخُ فوقه.. قدْ علوْنا فوقك، ثمّ يطمس ما فعلتُه جميعًا.

أجابَ الشّيخ عتمان بانفعالٍ زائد:

- مولاي قاهرُهم جميعًا، فما هم إلّا شراذم مشتّتة، ينفرُ العامّة والخاصّة من نَتَن رائحتِهم.

- هذا لنْ يغيّر الحقيقة.

ثمّ طأطأ رأسه، وتنحّى إلى شبّاك يطلّ على حديقة القصر، وألقى بناظريه منها، وبعد صمتٍ لم يدُم تلفّت الشّيخ عتمان حوله قبل أن يقطعه في شبهِ همس:

- تزوّج يا مولاي.

لم يردّ سرحال، وكأنّه لم يسمع، فطالَ الصّمت بينهما، حتّى همّ بأنْ يعيد ما قال، فقطعه استئذانُ الحاجب:

- سماهر قائدُ الجند يطلب المثولَ بين يديكم يا مولاي.

دهشَ الشّيخ عتمان عندما وجدَ سرحال يردّ على حاجبه فورًا بإشارةٍ من يده، فهو واعٍ لما حوله.

وقتٌ قصير كان قائدُ الجند يضرب الأرضَ بخطوات قويّة جادّة تنبئ عن قوّة صاحبها، وبصوتٍ جَهْوريّ نبعَ عند أعتاب الباب يُسمع مَن في آخر القاعة:

- أشرقَ الله يومَ الملك بكلّ خير.

عادَ سرحال بخطًى بطيئة واثقة إلى كرسيّه:

- ويومُك يا كبيرَ الجند، هل عندك من جديد؟

- الحمدُ لله يا مولاي، كلّ شيء بخير، بترتيبِ وحكْمة مولاي.

بعدَ أنْ أخذ لمحةً من الشّيخ عتمان الذي وجدَه مطأطئ الرّأس وكأنّه لا يعنيه ما هو أمامه، فجزّ على أسنانه وهو يحدجه بنظرةٍ صارمة، ثمّ أكمل:

- الحرسُ يستأذن في ارتداء السّلاح والنّزول إلى الأسواق.

أشارَ سرحال بيدشه:

- تصحبُك السّلامة والتوفيق.

انحنى مُحيّيًا، ثمّ دار منصرفًا فتبعَه سرحال بناظريه حتى اختفى، فلزمَ عتمان الصمتَ حتّى يأذن الملك بالحديث، ولم يطُلْ ذلك كثيرًا حين قال ساخرًا:

- حيدرة، كما يحبّ أن يُطلِق على نفسه هو أوّل طامعٍ في الملك.

- تقصد سماهر رئيس الجند؟

- ومَن غيره؟

- وما يُطيل صبرَ مولاي عليه؟! اقبض عليه فورًا.

- ونُقلب الجندَ علينا؟! بل أبقيه تحت أعيننا حتى اجد مَن يحلّ مكانه وأأمن به غضبة الجند.

ثمّ كسا وجهَه الاهتمام، وهو يستطرد:

- ماذا كنت تقول قبل أن يدخل؟

كسا وجهَ عتمان الجديّة:

- كنتُ أقول يا مولاي، إنّه آنَ لك آن تتزوّج بأخرى، هذا ما كنت أقترحُه على مولاي، لكنْ بعد دخول سماهر وقولك عنْه ما قلت فأنا، ولتسمح لي مولاي، أدْعوك بلْ وألحّ عليك أن تتزوّج وتنجبَ الذريّة التي تكون عونًا لك وسندًا.

ألقى سرحال ناظريه حيثُ الباب المغلق، ثمّ أعادهما إلى عتمان وهو يتساءل:

- وهل ستوافق عزة الملك أغا بأن يكونَ لها ضرّة؟

- وهل مُنجبةُ الوريث والسّند تكون ضرّة؟! لن تكون ضرّة إلّا لمَن يتمنّى لمولاي الشّر.

ألقى ببصره نحوَ الباب كأنّه يطمئنّ بأنه خالٍ قبل أن يستطرد:

- ثمّ هل مولاي يحتاجُ إلى إذنها؟!

شعرَ عتمان أنّه تعجّل فيما قال، لكنّه أكمل دون تردّد:

- مولاي يفعل دائمًا الصوابَ له ولحرَمِه المصون وللرّعيّة.

ردّ سرحال مذكّرًا عتمان:

- تعلم أنّ عزة الملك كانت سندًا لنا في هذا الحكم، ووقفت معي ضدّ أبيها، بل وساعدت في عدم نجدَةِ أبيها.

- كلّ ذلك كان لصالحِها يا مولاي.

مرّة أخرى شعر أنّه تسرّع، لكنّه أكمل ولم يتردّد:

- فهي عندما تكون زوجةَ ملك البلاد أفضل مِن أن تكونَ ابنته.

- صدقْت، لكنْ.. مَن ترى يصلح لنسبنا؟

- أقترحُ يا مولاي أنْ يكون أحدَ الرعيّة؛ حتّى تأمن غضبته، وتكسبَ ودّه، ويكون ذا نسبٍ وحسب.

ملأ الاهتمامُ وجهَ السّلطان فأكملَ عتمان:

- وموجودٌ يا مولاي.

***

(٥)
سعيد القمّاش

تكدّس الخان بكلّ معروضاته من الأقمشة التي تشكّلت من كلّ صنفٍ قدرًا معلومًا، فأضحى الخانُ ضيّقًا، حتّى ممرّاته أصبح السير فيها شاقًّا، فلم يقم العمّال بمتجر الحاجّ سعيد القمّاش بعرض القماش ونشرِه خارج المتجر كما يفعلون كلّ يوم بناءً على أوامر الحاج سعيد الذي انْحشر في صدْر المتجر، وقد تراكمتْ حولَه أكوامُ القماش.

رغم أنّ الجوّ أشرق صحوًا وليس في السماء أيّ نذير لسحاب متراكم، لكنّ الحاجّ سعيد القمّاش منعَ عمّاله من إخراج أصناف القماش أمامَ باب المتجر كي يراه الغادي والرّائح كما يفعلون كلّ يوم؛ فيكون دعايةً لبضاعته، خاصّة أمام النساء المتردّدات على السوقِ فيزغلل أعينهنّ فيكنّ له طالبات، وذلك خوفًا من هجمةٍ غير متوقّعة مرّة أخرى لنوبةِ مطرٍ قد تضربُ البلاد، كما حدث ليلةَ يومه هذا.

مِن مكانه يرى الشّارع فيتسلّى طولَ يومه بمشاهدة السائرين والغادين فيه لا يترك مكانَه إلّا لإجابة نداء الصّلاة، أو نداء أحد الزبائن خاصّة النساء صاحبات الثّراء منهنّ.

لم يكنْ زيرَ نساء، أو متشبّب بهنّ؛ بل كان معهنّ غايةً في الأدب والتعفّف الذي يكسوه الرّقة والاهتمام، فهو تاجرٌ ورأسُ ماله لسانُه الحيّي، وصلبُ زبائنه النساء فهنّ المشتريات رقم واحدٍ عنده، فهناك مَن تشتري لتتحلّى، وهناك مَن تشتري لتتستّر، وهناك مَن تشتري لتتزيّن في نفسها أو بيتها، وهناك مَن تشتري لعروسٍ أشرفت على الزّواج، وقد علم مِن زمنٍ أنّ الله حباه بقدرةٍ على حبْكِ الكلمات الجيدة التي تناسب كلّ موقف، وقد صرّح له أكثرُ من تاجرٍ يعطيه بالآجل أنّه لا يعطي أحدًا بالآجل غيره؛ لأسلوبه الجيّد في المحاورة، وقدرته على الإقناع، وكم مِن تاجرٍ أجله الأجل بعد الآخر لسداد أثْمان البضائع المشتراة، ولثقتهم في قوّة كلمته والتزامه دائمًا بها، على الرّغم أنّ هذه ليست مهنته الأمّ ولا مهنةَ جدوده، لكنّه تعلّمها في ريق شبابه فحذقها وأتقنها.

وقدرةُ الحاج سعيد القمّاش لتذوّق الجَمال وحبّه له؛ ساعده كثيرًا في مهنتِه فيستطيع أن يحدّد الأشكال والألوان الأجملَ فيها والأقلّ جمالًا، ويفاضل بينهم.

في صدْر خانه وأمامَ بابه المفتوح على مصراعيه، جلس يتسلّى بذبّ حرارة الصيف التي عادت بلفيحها وحشراتها، ويجترّ بعض الذّكريات عندما لمحَ- عن بُعْد- الأرملة زينة العايقة- كما يُطلق عليها أقرانُه التّجار- تمرّ في السوق، وقد تخيّل أنّها تمهّلت أمام خانه فأرسل بصرَه بعيدًا عن الباب.

لم يكنْ غريبًا على الحاجّ سعيد القمّاش أنْ يتزوّج امرأة جميلة مثل السيّدة سعدية، رغم أنّها ليست ابنة تاجر ولا ثري؛ بل كانت أقلّ بكثيرٍ عن مستواه المادي، وقد أعجب بها مرّة عندما جاءته تشتري منه فأعجبته جدًّا رغم أنّه لم يرَ منها غير عينيها الواسعتين، وما حولها من بياضٍ أشرأبّ بحُمرة الخجل عندما وجدته يصوّب النّظر إليها فغضّت الطّرف، وانصرفت غاضبةً لا تستمع لرجاءاته واعتذاراتِه، وذلك ما دفعَه لاتّباعها حتّى عرف مسكنها، وبنت مَن هي، وممّا يتذكّره دائمًا ويعيدُ حكيه لها في ساعاتِ الصّفا بينهما- وهما يضحكان- وقتَ أنْ حضرَ في المساء لكي يخطبها وهي في ذات الوقت تحكي لأمّها عنه وعن وقاحتِه وجرأته لتصويب النّظر للنساء دون أدبٍ أو حياء، فتسأله في دلال:

- وما الذي أعجبك فيّ وأنت لم ترَ منّي شيئًا؛ فقد كان الخمار والنقاب يسدّان عن عينيك كلّ منفذ!!

فيضحكُ وهو يقول:

- بل رأيتُك وعرفتك.

فتبادلُه الضّحك وهي تسأله:

- وما عرفت؟

فيقولُ بشيء من الجديّة:

- عرفتُ أنّك جميلة، بل جميلة الجميلات.

فتمرحُ السّعادة في صدرها، وهي تتيه بكلماته فتسأله:

- أعرفتَ كلّ ذلك من عيني؟

فيردّ في ثقة:

- نعم.. جَمالُ عينيك الملوّنتين بلون غروب الشّمس أخبرني أنّك جميلة المحيّا.. وجَمال البَياض الذي بدا فيما بدا من بشرتك فتحلّق حول عينيك عرفتُ أنّك تبارين الصّبحَ إذا تنفّس في الضياء.. وعندما اخضَبّ هذا الصّباح بحمرة الغروب تيقنتُ أنّك ذات أدبٍ وحياء، وفرارُك من أمامي أعلمني أنّك ذاتُ دين، وتأكّدتُ عندما عرفتُ أنكِ ابنة إمامِ مسجدِ حيّنا، ثمّ عندما بدوتِ من بعيد فارّة لاح قدّك فأيقنت أنّك من مُتع الدّنيا.

فتتيهُ ضحكًا ومرحًا، وهي تتصنّت لكلماته، ثمّ تردّ عليه:

- أنا لا أعلمُ أتاجرٌ أنتَ أم شاعر؟!

فيردّ سريعًا:

- أنا شاعرٌ معك، وتاجرٌ للجَمال في متْجري.

فيتلوّن بياضها بحُمرة الغضب عندما تتذكّر تعاملَه مع النساء، وبيعَه لهنّ، فتقول متغاضبة:

- لعلّك تقول هذا الكلام لكلّ مَن تبتاع منك!!

فيضحكُ لإحساسه بنبرة الغيرةِ في كلماتها، ثمّ يجيبُها جادًّا متذكّرًا تربيتها الدّينية، وأباها المرحوم إمام المسجد:

- حاشا لله أن تخرج منّي كلمةُ غزلٍ لامرأة لا تحلّ لي.

فتردّ في مشاكسة، جذورُها حقيقيّة:

- أمعنى هذا أنّك من المُمكن أن تتزوّج علي؟

فيردّ في جديّة غائظًا لها:

- أنا لا أتعدّى الشّرع.

تتبرّم وتتأوّه غيظًا، وترنّ ضحكتُه لغضبها.. يبتسمُ لكلّ تلك الذّكريات التي يقطعها صوتُ القادم الذي تخطّى عتبة الخان وهو يقول:

- ما شاء الله على الرّوقان!

فيقفُ مُرحّبًا:

- اهلاً بأخي الحاجّ رضوان، يا مرحبًا.

- لعلّي لم أقطعْ عليك سعادتك؟

- سعادتي في زيارتك، تفضّل.

اتّخذ الحاجّ رضوان مجلسه بجوار أخيه بعد مصافحته، كان يشبهه.. لم يكنِ الحاجّ رضوان أكبرَ من أخيه بكثير، وكان جسدُه يشهد له بالقوّة والصّلابة، قمحيّ اللّون، حادّ النّظرات وما يرتديه يدلّ على اعتنائه بملبسه؛ جلباب طويل بنيّ اللّون، مقموط بقماطٍ من الصوف، عليه عباءةٌ منسوجة بخيوطٍ من قطن وحرير، ويعتمر عمامةً بيضاء أكبر من العمامة التي يرتديها أخوه، ملابسه لا تدلّ على أنها أغلى من ملابس أخيه؛ بل تدلّ على توسّط مستواه المادي بين الغنى والفقر، يبشّ له الحاجّ سعيد ويبدؤه:

- مرحبًا بأبي محمود، كيف حالك اليوم؟

- الحمدُ لله على كلّ حال.

- ألا توجد أخبارٌ عن محمود؟

- ليس بعد.

- أمازلت مغضبًا عليه؟

- ماذا يريد الأب لابنهّ إلّا كلّ خيرا!
- لا تقلق.. محمود رجلٌ رغم سنّه الصغير؟
- بل قُلْ رأسُه ناشفة.
- مَن شابه أباه؟
- لم أتركْ أبي في تجارته وأركبُ البحرا!
- نفسُه يا رضوانُ وما تتوق..
- ما الفائدة من عمله بحّارًا؟
- قد صارحني مرّة كنّا نتكلّم فيها معًا أنّه يريد أنْ يكتسب خبرات وتجاربَ كثيرة في وقت قصير.
- السّوق مليء بكلّ ما يريد.
- لكنّ تجارة العطارة لا تستهويه.
- مثلك؟
- ومالي أنا؟
- تركتَ تجارةَ أبيك وجدّك، واتّجهت لتجارة الأقمشة.
- كُلٌّ ميسّر لما خُلق له.
- لماذا لم تستمرّ معي في تجارة أبينا بعد وفاته؟
- تابعًا لك؟
- بل شريك.
- هذا في الظّاهر، وهذا ما هربَ منه محمود.
- ولماذا لا يكون تابعًا لأبيه؟
- هو يريد أن يبني حياته بنفسه.
- مثل عمّه؟
تغاضى عنْ تعليقه، ثمّ أكمل:
- ابنك له رأي وعنده نظر ويرى الحالة
- لو أنّك استمرّيت في تجارة أبيك لتغيّر الحال؟
- أخي رضوان، لماذا تعيدُ هذا الموضوع؟! هذا أمرٌ انْقضى منذ زمن.

صمتَ الحاج رضوان قليلًا، كأنّه يغلق صدره على مرْجَلٍ حتى لا يظهر اتّقاده؛ فغيّر مجرى الحديث:

- لماذا لم تُخرج بضاعتك أمام الخان؟

- خفتُ أن ترسل السّماء ماءها فتتضرّر.

- عندك حقّ.. فعجبٌ ما حدث تلك الليلة.

- له في خلقه شئون!

- لعلّه خير، صيبًا نافعًا بإذن الله.

يقوم الحاجّ رضوان، يهمّ بالانْصراف:

- أريد قطعةَ قماش مِن اختيارك.

- ألك أمْ لحرمكم المصون؟

- هي فعلًا قطعة قماش حريمي، لكنّها ليست لحرمنا المصون.

قطّب جبينه الحاجّ سعيد، لكنّه لم يعلّق.

- ستأتيك امرأةٌ من طرفي لتأخذها وأنا مَن سيسدّد.

قبل أن يردّ تركه وانصرف، فلزم الحاجّ سعيد مكانَه، ولاذَ بالصّمت.

***

(٦)
عُودة

أظلمتِ الدّنيا، وانقطع الضّوءُ إلّا مِن بعض ضياءِ القمر البادي في تمامِه عاليًا في الأفق، ينشره حيث يستطيع الضّوء أن يصل، فنفذَ من بين فتحات شبّاك المسجد، فأضحى منيرًا بضياءٍ أبيضَ خفيفٍ، يلقي المحبّة في قلوب عامريه حتى هذا الوقت المتأخّر من الليل.

في محرابِ المسجد، تكوّم جسدٌ مسجّى لا ترى له حركة ولا تشعرُ له بنبض إلّا نهنهة خفيفة تخرجُ منه ضعيفة لا تسمعها عندما تزيد يرتجفُ منها الجسدُ المسجّى، وعندما تنتهي يثبت الجسد كأنّه جذع خشبٍ نكت في الأرض.

طالَ الوقت على الجسد قبل أن يقوم من سجودِه كأنّه خشب مشدودُ الجذع، لا يتحرّك منه غير إبهامه، ثمّ ينهي صلاته بالتّسليم لا يلبث أن يخرّ ساجدًا غارقًا في بكاءٍ شديد بصوتٍ متقطّع مبحوح، يردّد بين الفنية وأختها: يا ربّ، يا ربّ

ويظلّ على حاله هكذا، والوقتُ يمرّ بطيئًا حتّى قطعه صوت من ناحيةِ الباب:

- أمازلتَ هنا يا عودة؟!

تمالكَ عودة نفسَه فكتمَ صوتَه.. قامَ من سجوده، مسحَ ما هطل من ماءِ عينيه بكمّ جلبابه، وأخذَ يتنحنح ويسعلُ حتّى يهيئ صوتَه للردّ، فيُجيب دون أن يلتفتَ، وهو يجتهد أنْ يخفي حالته عن داعيه:

- أهلًا سحنون، ماذا جاء بك؟

- افْتقدتُك يا رجل.

قالها سحنون وهو يتخطّى عتبةَ المسجد بعد أن خلع نعليْه، أجابه عودة بخشوع:

- كيف تفتقدني وأنا هنا؟!

تأبّط سحنون نعليْه:

- يا رجل، هل أصبحتَ تعيش هنا منذ أنْ صرت معلّم الأولاد ومحفّظًا للقرآن؟!

تنفّس عودة بعمق، وزوى ما بين عينيه وكأنّه يتذكّر، ثمّ تمتم:

- وسأظلّ كذلك حتّى الفناء.

لم يسمعْ سحنون ما قاله عودة، فأكمل حينما صار أمامه:

- أِلنْ تعود إلى البيت؟

- أيّ بيت؟!

- بيتي يا رجل! أنسيته؟

- تقصد تلك الدّروة؟

- أتهزأ بي، وتسمّي داري دروة؟ أنسيت يا رجل أنّها كانت ملاذك تلك اللّيلة!!

سرحَ عودة ببصره محاولًا تذكّر شيء ما، ثمّ ما لبث أنْ عاد لحاضره وهو يقول بخشوع:

- سامحني يا أخي، والله ما قصدت أنْ أهزأ بك؟

ارتسمتِ الدّهشة على وجه سحنون ممّا اعترى صديقه فقال في عجلة:

- ما لك يا عودة؟! ماذا أصابك يا رجل؟ أنا لم أشتَكِ؛ بل قلتها لك مازحًا، ولكنْ عندك حقّ، هي أشبه بخصّ وليست حتّى دروة، لكن ما العمل؟ ليس باليد حيلة.

- آنَ لك أن يكون لك دارٌ مثل بقية القوم.

- يدي على كتفك يا ابن...

صمتَ سحنون متفكّرًا قبل أن يكمل:

- ما هو اسمُ أبيك؟

- أبي!!

- نعم، أنسيته أيضًا كما نسيتَ حياتك السّابقة كما تزعم؟!

استوى عودة على ساقيْه، ثمّ تحرّك ناحية إحدى حوائط المسجد وهو يردّد بين نفسه: أبي!! اسم أبي؟

ويأتيه صوتُ سحنون الجَهْوري:

- نعمْ يا رجل، ألا تعرف اسم أبيك؟!

يلوذُ عودة بالذّكريات يحتمي بها من سؤال سحنون الذى كان له مفاجئًا؛ حيث ذكّره بأمرٍ لا يذكره، ذكّره أنّه لا يذكر ماضيه فقط؛ بل لا يذكر اسم أبيه، حتّى أنّه لا يذكر اسمه الحقيقي، إلّا خيالات لا تصدق ولا تؤكّد، واكتفى بأنْ طلب منه أنْ يدعوه عودة فقط، وذكريات تأتيه كلّ فترة كأنّها ومضاتٌ من برقٍ يومض فجأة فتهزّه هزًّا عنيفًا، ثمّ تختفي وتتركه مكدودَ النّفس، لاهثًا، كأنّه قضى عمره في القصب خلف خيلٍ مُسْرجة، أو في صعود جبلٍ عالٍ، حاول كثيرًا أن يمسك بإحداها، لكنّه أبدًا لم يستطِع فباتَ ظهورُ تلك الومضات الآتية له من الماضي منغّصًا لحياته الحاضرة.

لم يذكرْ ذلك الأمر لأحدٍ، حتّى سحنون صديقُه المقرّب لا يعرف عنه شيئًا، رغم أنّه ساعدَه في المعيشة، وفّر له مأوى فأسكنه في بيته الذي صنعه من الخوص وجريدِ النّخيل، ثمّ وفّر له عملًا يتكسّب منه ويُعينه على الحياة، فألحقه بالمسجدِ الكبير كمعلّم للصّبيان فبرع في ذلك سريعًا، وحازَ قبولَ الصّبيان وأهليهم، وأقبلَ عليه الناس يضعون أولادَهم عنده يحفّظهم القرآن الذي اكتشف أنّه يحفظُه بإتقان لا يتفلّت منه حرف.

لكنْ رغم كلّ ذلك لا يتذكّر أين حفظه؟ أو متى؟ وعلى يدِ مَن أخذ إجازتَه وروايته؟

- ها قد وصلنا إلى الدار.

أخرجَه من أفكاره سحنون بصوتِه الجَهْوري، فها هو مرّة أخرى يغيب عن الوجود في أفكاره المتلاطمةِ التي أخذته بعيدًا، فخرج من ظلمةِ أفكاره إلى ظلمةِ واقعه التي تحيطه من كلّ جانب، *فدار سحنون*- كما يطلق عليها سحنون- و*دروة*- كما يطلق عليها عودة- في بقعةٍ متطرّفة بعيدة عن الحي، أقرب للمقابر من العَمَار، ولسحنون حظٌّ من اسمه؛ فهو لا يهابُ الوحدةَ ولا الظّلام كاسمه صلد يكسر الحجارة.

يقاطع سيلَ أفكاره مرّةً أخرى صوتُ سحنون:

- قد شرّفت داري المتواضعة.

التفتَ عودة إليه في حدّة:

- الا تريد أن يكون لك دار مثل أهل هذا الحى؟

ينظر سحنون حيث أشار عودة فيرى ظلال بيوت تتكون من طابق ولا تتخطى الطابقين فيسرح في أمنية قديمة أن يمتلك دار مثل تلك الدور لكنه ينفضها سريعًا وهو يهز راسه في استسلام

- وكيف لى بهذا ؟

- أنا أعينك فيها، ولتكن دار كبيرة فسيحة وبدورين أنت الأول وأنا الثانى وليكن الثاني بابه من خلف بيتك فلا تمر على وأنت تدخل دارك ولا أمر عليك أنا أيضًا وأنا أصعد إلى دارى

فغرَ سحنون فاه ببلاهةٍ أكثر منها دهشة، واستغراب وغرقَ في الصّمت، لا يجيب إلّا بعد أنْ هزّه عودة هزًّا خفيفًا:

- ماذا قلت؟

- ليسَ فيها قولٌ بعد قولك.. لكن!

قاطعَه عودة:

- بقي أمرٌ آخر.

- ماذا؟

- أنْ يكون لك زوجة.

ظلّ صامتًا، ينظر إليه والتّأمل يملأ وجهَه، والانْبهار يخطّ خطوطه على محيّا... قال سحنون بتمهّل:

- لا أعرف بما أعجبُ، أمِن همّتك أمْ من أفكارك التي لا أجدُ لها مثيلًا فيما حولنا!!

***

(٧)

ابن حنبل

علياءُ في حجرتِها تقطعُها جيئةً وذهابًا في قلقٍ واضطراب شديد وضيقٍ أشدّ كالظّبية بين فكّاك الكواسر تتجلّد لأنيابهم النّاهشة، وبالقرب منْها أولادُها فتكتم آهاتِها وأنّاتها خوفًا أن يسمعْنَها فيهبّوا إليها مهرولين في حبّ وأمل، فتنقضّ الأسود عليهم فيصيروا فريسةً بين الفِكاك مثلها.

شهر كاملٌ قلّ فيه زادُها إلّا من لقيْمات يقمْن صلبَها، تزدريها غصبًا لأجل الحياة.. وندرَ فرحُها حتّى لم يعدْ يُرى ثغرُها يفرج عن أسنانها، وما انّفكّ مزمومًا في ضيق، وامتنع كلامها حتّى الهمس، فعبسَ وجهُها، وتحلّق السّواد بعينيها، وانطفأ بريقُهما وضياء وجهها.. ونحل جسدُها حتّى أوشك أن يضمُر، هذا منذ أن خطبها سرحال وليّ أمرِ البلاد، وحاكمُها، أيّ بنتٍ أخرى مكانها لطارتْ بأجنحة السعادة وحلّقت في علياءِ الفرح والسّرور؛ فقد اختارها أميرُ البلاد، وستصير أميرةَ وزوجةَ وليّ الأمر، وستصير واليةَ أمره، تملكه وهو يملك الرّعية، اختارها دونًا عن بنات البلد كلّهن.

ولأنّ علياء منذ نعومة أظفارها وهي مختلفة عن أقرانها؛ كان ردّ فعْلها مختلفًا كذلك، فانعكس فعلُها وصارت أغلبَ أوقاتها ذاهلةً عمّا حولها، تتكاسل عن أعمال البيت، وإن أدّت أيّ عمل لا تتقنه، تتأخّر في الاستجابة لأمّها حينما تدعوها، فتسرّب القلق إلى قلب أمّها، وباتت حزينةً عليها.. وغدتْ تسألها هل تشتكي من مرض؟ تجيبها بهزّ رأسها نفيًا، فتزداد حيرتُها وقلقُها عليها، ويتعكّر خاطرها أكثر تحسّبًا أنّ ما بها مسّ مِن جنّ زارها بسحرٍ أو لبس؛ فلزمَتْ جوارها الأيّام تقرأ عليها آياتِ الرّحمن. تشعرُ علياء بتحسّن فتنشطُ أمّها في القراءة.. وعندما تتوقّف تعود لسيرتها الأولى، عندها تأكّد صدقُ حدسها، وأنّه لا نكران من طائفٍ من الشّيطان مسّها، فيتكدّر خاطرها وينكمش قلبُها حزنًا عليها، وتسكن الكآبة محيّاها.

وما حالُ أبيها الحاجّ سعيد ببعيدٍ عن حال أهل بيته؛ فقد أضحى يخرجُ لصلاة الفجر ولا يعود إلى بيته إلّا بعد صلاة الظهر، بعد أن كان يعودُ كلّ يوم بعد الشّروق، بعد أن يصلّي ما تيسّر له من صلاة الضحى فلزمَ دكّانه يتّخذ مجلسَه لا يتركه، وانقطعَ عن ممارسة هوايته المفضّلة من تجاذبِ أطراف الحديث مع المشترين والبائعين، وانقطع عن جلسته المحبّبة إليه مع الشّيخ محمود حنفي الدّمشقي، أو ابن حنبل، كما يحبّ أنْ يدعوه لالتزامه بجلّ آراء الإمام أحمد بن حنبل، ولا ينفكّ يمرّر سبحتَه بين أنامله، وخلفها شفتاه تتمتمُ بما يحفظ من الأذكار والدّعاء.

حاولَ صبيّه الذي يعمل معه في متجره أكثرَ من مرّة أن يخرجه من انغلاقه

على نفسه وصمتِه، فيسأله عن سعْر بضاعة، وهو بها عليم، أو يطلبُ منه أن يحسمَ له فصالَ مشترٍ، وهو عليه قادر؛ فلا يزيد عن ردّ إجابة مقتضبة *أرحِ الزّبون*.

ورغمَ جلوسه في متْجره وانزوائه عن النّاس، وشبه اعتزاله البيْع والشّراء، إلّا أنّ حركة البيع لديه كانت في ازديادٍ جدًّا؛ بل وتغيّرت نوعية المشترين، فصارت زوجات الأمراء وجواريهنّ وحريم الوزراء والخاصّة زبائنَ لديه، فانتعشَ البيع لديه، وزاد الرّبح وفاض؛ بل طرقَ بابه تجّار الأقمشة على اختلافهم يعرضون عليه ما لديهم من أصنافِ شتّى الأقمشة من؛ الحرير والصّوف والكشمير والهندي والدّمشقي والبصري والإيراني، ويرغّبونه في الابْتياع منهم، وبالآجل، حتّى زاره شهبندر التّجار بمتجره، وجلس معه يتبسّط معه في الحديث، ولم يتركه إلّا وقد اطمئنّ شهبندر التّجار أنّه راضٍ عنه، ورغم استغرابه لفعْل شخصٍ مثل شهبندر التّجار ذلك، لكنّه لم يخْفَ عليه ما وراءَ تلك التغيّرات كلّها.

لم يخْفَ عليه حرصُ العسكر أنْ يلزموا متجره آناء الليل وأطراف النهارٍ ويطوفوا حوله.. لكن كلّ ذلك لم يدخلِ السعادة قلبه، بل شعر فيها طوقًا حول عنقِه يضيق عليه، كلّما زادوا إقبالًا عليه شعر بالضّجر يعتصرُ قلبه، ويضيقُ صدرُه على أنفاسه.

قطع تفكّره صوتٌ رخيم قويّ، يعرف صاحبه جيدًا، محبّب إليه.. ألقى عليه السّلام على أعتاب المتجر، فهشّ له وبشّ، وانفرجت أساريرُ سحنتِه كأنّ غريقًا وجد قشّة، ولامَ نفسَه.. كيف لم يخطرْ على باله من قبْل.. علا صوتُه يردّ السّلام، فلفتَ انْتباهَ وتعجّبَ مساعده، ودفعه أن يرى القادم، وعندما وجده الشّيخ محمود حنفي الدمشقي لاحت على شفتيه شبهُ ابتسامة، ورفرفت الرّاحة على محيّاه، وانشغل في إنْجاز ما بين يديْه من أعمال.

هبّ الحاجّ سعيد القمّاش من مكانه يستقبلُ ضيفه العزيز مادًّا يده مصافحًا، فجذبه الشّيخ محمود إلى أحضانه، وهو يقول مازحًا:

- ما هكذا لقاءُ الأحباب بعد الغيبة!

وكأنّه كان يريدها، فاستسلمَ لجذبته، والتقى حضنه يرتاح فيه، فأطالَ الضمّ بشوق.. تركه الشّيخ محمود حتى انتزعَ نفسَه بنفسه منه، فعاجله الشيخ محمود:

- أين أنتَ يا رجل؟ بتّ لا ألقاك حتّى ظننتُ أنّك اعتزلت الصلاة!

فندّت ضحكةٌ مغتصبة من صدره، كانت كضحكة طفلٍ يحبو، ثمّ قال وهو يفردُ يدَه اليسرى أمامَه، ويده اليمنى على ظهر الشّيخ تدفعه برفقٍ أن يتقدّم إلى داخل المتجر:

- وهل هناك عاقلٌ يعتزل الصّلاة!

لم يطاوع الشّيخ دفعته، ووقف مكانَه وهو يشير أمام الخان:

- بل سنجلسُ هنا.

طاف التردّد بعقْل سعيد القمّاش، لكنّه لم يستجِب له.

- لا يرَدّ طلبٌ لابن حنبل.

علتْ ضحكتهما، وقدحُ اليانسون بين يدِ ابن حنبل يرشفُ منه بعد أنْ فرغا منذ وقتٍ من الحِلبة التي جاء بها عاملُه، ثمّ عاوده العبوس يسكن محيّاه، فأطال ابن حنبل النظرَ في وجهه، يتساءل هل هذا سبب ابتعادك، ولم تعدْ تصلّي في المسجد معنا، فأقرّه الحاج سعيد، وأجاب دونَ سؤال:

- وهذا ما دفعني أن أخلو بنفسي بعيدًا، وبتّ أصلّي بمسجد قريب من المتجر.

تنفّس الشّيخ محمود حنفي، فسمعَ لأنفاسه صوتٌ كأنّه ذكر لله واستعانةٌ به.. ورغم أنّه مولود في نفس العام الذي ولد فيه الحاجّ سعيد إلّا أنّ سعيد قد سبقه بعدّة شهور قليلة، لكن يعدّ الشّيخُ محمود مرجعًا في العلوم الشرعية كلّها بما حباه الله من ملكاتٍ وقدرات جعلتْه يحفظ القرآن مجوّدًا بقراءاته العشْر ومُتونِه وألفيّة ابن مالك في العربية والبخاري في الحديث، وألمّ بكثيرٍ من كُتب التفسير، ويعدّه الناس في العلم أعلمَ من الشّيخ عتمان رغم أنّ عتمان يسبقه في السن.

قال الشّيخ محمود بعد ترجيعٍ وذكر، وبعد أن مسح وجهَ صديقه سعيد القمّاش بناظريه، وتنهّد:

- كان بودّي أنْ أهنئك في هذه المناسبة كما هو المعتاد حينما يأذن الله أن يزوّج الأبناء، لكن...

يصمت قليلًا قبل أن يكمل:

- أصدقك القول أنتَ مبتلى.

ثمّ صمتَ كأنّه لا يجد الكلمات التي يكملُ بها حديثَه، فتمتم:

- أعانك الله عليها.

ضاقَ صدرُ سعيد، ولم يعدْ يستوعب قدرًا كبيرًا من الهواء يحتاجه كي ينفث عن نفسه به، فتلاحقت أنفاسُه بقوّة، وأطال النّظرَ لصديقه، ولسانُ محيّاه ينطق بقوّة *أهذا ما لديك، ما بحتُ لأحدٍ بما أنا فيه إلّا أنتَ، حتّى أجد لديك العونَ كما أنت دائمًا مع كلّ الناس*

- أرفض طلبَه.

ألقى بها بقوّة، ثمّ صمت..

لم يكنِ الشّيخ محمود بشخصيّة مائعة ولا ضعيفة؛ بل كان قويًّا شديدًا في الحقّ، لكنّه يعلم طبيعة شخصيّة صديقه التّاجر، ويعلم أنّ أصحاب الأموال نفوسُهم أضعفُ لخوفهم على مالهم، فلو كان هو مكانَ صديقه لكان أبلغَ سرحال نبأ رفضِه قبل أن يخطو الشّيخ عتمان رسوله بابَ داره لكنّهما رغمَ أنّهما صديقان قريبان إلّا أنّ كلّ واحدٍ ذو شخصيّة مختلفة عن الآخر.

قال ذلك حتّى يشدّ عزمَ صديقه فيما سيقوله بعدها، ويجعله متهيّئًا لقبول ما سيقول.. فأكمل حديثَه دون أن يجيبَ على تسائل صديقه الذي لاحَ على وجهه دونَ أن ينبث به:

- هاجرْ؛ فأرضُ الله واسعة.

***

(٨)
عزّة الملك أغا

جسدٌ لحيم، ممتلئ مع أقلّ حركةٍ يضطرب ويهتزّ، تتلفّح بثوب أسودَ وخمار، وينسدلُ على وجهها نقابٌ رقيق شفّاف أسود أيضًا، لا تكادُ تُرى مِن خلاله، وخلفها جاريتان ممشوقتان، يتلفّحن مثلها بالسواد يدلفنَ جميعًا داخل بيت سعيد القمّاش بعد أن طرقنَ الباب، وهنّ متعجّلات من أمرهن.

تقدّمت جاريتان صغيرتا السنّ أمام ربّة البيت، وضعنَ ما بين أيديهنّ من فاكهةٍ ومشروبات باردة على خوانٍ أمام تلك المتّشحات بالسّواد، وبكلماتِ ترحيب مقتضبَة، وبإشارةٍ من يدها طلبت منهنّ تناولَ ما قدّمت، عندما وجدتْ أيديهنّ لا تصل إلى ما قدّمت أوجست منهنّ، خاصّة بعد أن ظللنَ على هيئتهنّ ولم يتخلّين عن وشاحهنّ الذي على وجوههنّ، فتعجّبت سعدية، وارتابت لموقفهنّ، وبدتِ الرّيبة على وجهها، ووسوس لها الشرّ عنهن، فأذعنتْ له، ودبّ القلقُ بقلبها، فظهر الاضطرابُ في أوصالها، فرصدته كبيرتُهنّ جسدًا ومقامًا، فقالت:

- لا تراعِ أمّ علياء؛ فما جئتك إلّا زائرة، وبخير كثير.

قالتْ مرحّبةً، وفي نبراتها مسّ الارتياب:

- أتمنّى لك ولنا الخير.

في تلفّتٍ مُصطنع حولَها، قالت كبيرتُهنّ:

- بيتُك رائع أمّ علياء، ذوقُك جميل.

سكنتْ سعدية مع ريبتِها، وتوجّسها في قعْر بئر:

- أشكرُك، لكنّي أحسب أنّك لم تأتِ إليّ لتمدحي بيتي؟!

اكتسا وجهَها الجديّة والاهْتمام وهي تلتفت إليها:

- عندك حقّ، سأزيل عنك ما رابَ نفسَك، وأفصح لك عمّا أريده، فكما قلت لك إنّي لم آت إلّا لخير.

لزمتْ سعديّة الصمت، ونطق محيّاها بالاهتمام، فأكملت السيدة:

- لقد وهبني الله بنتيْن.

أشارت بيدها نحو الفتاتين دون اهتمام، ثمّ أكملت:

- أحببتهما حبًّا شديدًا، فراعيتهما أحسنَ الرّعاية، وربّيتهما أفضلَ ما تربّي الأمّ أولادها.

صمتتْ هنيهةً، تلتقطَ أنفاسها، فطأطآت الجاريتان رأسيْهما كأنّهما مسّهما الخجل، فأكملت:

- واهتممْتُ بهما خيرَ اهتمامٍ مِن تعليم منطق الكلام والحساب، وشيئًا كثيرًا من القرآن، ولم أنْسَ اهتمامات البيت ومهامّه، حتى شبّتا على أحْسنِ ما يكون.

تردّدت أنفاسها، وظهر لهثها، فصمتتْ قليلًا، لكنّها تعجّلت الحديثَ حتى لا تفطنَ سعدية إلى دواخل نفسها:

- ثمّ اكتملتْ فرحتي بطرْقِ الخطّاب لبابهما، فسعدتُ أيّما سعادة، وفرحتُ وعزمت كما أحسنتُ تربيتهما سأحْسِن جهازَهما.

انقشعتْ بعضُ سُحب الرّيبة من سماء وجْه سعدية، وداخَلَها بعضُ الطّمأنينة وهي تقول:

- باركَ الله لهما، وباركَ عليهما، وأسأل الله أن يتمّ لهما على خير.

لكنّها استطردتْ سائلة:

- لكنْ ما دخْلي أنا في كلّ هذا؟

شحذتِ الزّائرة همّتها بعد أن هدأت أنفاسُها، وابتسمتْ وهي تقول:

- أنتِ الأساسُ يا أمّ علياء.

تحصّنت سعدية بجدار الصّمت، فأكملت:

- وهذا لأمريْن؛ الأوّل: أنّك زوج أكبر تاجر قماشٍ بالمحروسة، وبلا شكّ لك ذوقٌ عالٍ وجميل، كما هو واضح في بيتك..

تلفّتت يمنةً ويسْرة، وترفع يدَها إشارة كهذا..

- فأستعينُ بذوقك وخبرتك وحُسن اختيارك للألوان والخامات وتختبرين جودةَ الصّنع، أي سآخذ منْك بضاعةً مضمونة، وبأيّ سعرٍ تطلبينه.

انتظمتْ أنفاسُ سعدية بعد أنْ هدأ خاطرُها، وسكنَ اضطرابُها..

- والثاني: أنّ ابنتي من سنّ ابنتك علياء– حفظها الله-.

ضغطتْ على حروف الدّعاء لابنتها، ثمّ استكملت:

- سأحتاجُها مع ابنتي يستشيراها ويأنسنَ لذوقها ورأيها، فهنّ عرائس مثلَ بعض.

ثمّ نحتْ بالحديث متسائلة:

- لكنْ أينِ هي؟ لم أرَها منذ خطوتُ داركم؟

صمتتْ أمّها، ولم تحرْ جوابًا، فاستعجلت نطقَها؛ فقالت:

- ألا تريد أن تسلّم على زوج أمير وابنتي أمير؟

انتعشَ خاطرُ سعدية بالبهجة، وسعدتْ بضيوفها فقد وضح أنّهما من بيتِ أمراء، فنسيتْ تعبَ ابنتها، وأجابت:

- سأرسل لها.

لم تغبْ كثيرًا، فعادت وخلفَها ابنتُها بخطى وئيدة، ورغم شحوبها وهزالِها إلّا أنّ إشراق الجَمال بادٍ فيها جعلَ قلبَ المتشحة بالسواد يدقّ بعنفٍ حتى خيّل إليها أنّهم يسمعوا دقّاته، وببادرةٍ لم تفعلها منذ دخلت البيتَ رفعَتْ نقابَها عن وجْهها حتّى ترى علياء جيدًا، فكسا وجهَها غيامةُ حزن وكدرٍ يخالطهما حسدٌ وغيرة لم تفلح في حجبِهما بكلماتها العذْبة المرحّبة بعلياء، التي كانت يتّضح عليها عدمُ عبئها بالصّيوف، فكانَ سلامُها فاترًا، قامت لها زوجُ الأمير فاحتضنتْها، وخيّل إلى علياء أنّها تتشمّمها وتتحسّسها، ثمّ وسّعت لها للجلوس بجوارها، وربّتت على كتفها، ثمّ أنزلت يدَها على ظهرها، ثمّ صعدتها أكثرَ من مرّة مرحّبة بها:

- ما شاء الله، مثلُ القمر يا علياء، عروسٌ غضّة، ولا ينقصها غير العريس، خسارة أن لا تنكَح حتّى الآن.

ثمّ التفتتْ إلى أمّها:

- ألمْ يطرقْ بابَها خطّاب؟!

لاذتْ أمّها بالصّمت، فأكملت زوجُ الأمير:

- لا نعرف ما هذا الحظّ العاثر التّعس الذي يلازم الجَميلات، مِن عجائب الزّمن أن تظلّ الجميلةُ دون زواجٍ حتّى تتخطّى العشرين.. وامصيبتاه إنْ لم تتزوّج.

ثمّ تلتفتُ إلى علياء:

- عجبًا إنّها لم تخطَب حتّى الآن؟!

ثمّ تدير وجهَها لأمّها:

- أبِهَا شيء؟

وقعَ سؤالُها في قلب أمّها كخنجرٍ مَسْنون ضربَ بقوّةٍ جعلها تنتفضُ وتذودُ عن ابنتها:

- أبدًا، على الإطلاق؛ بل هي مخطوبة.

ظهرَ الاهتمامُ على وجْه زوج الأمير وهي تردّ:

- أنا قلتُ هكذا، فلا يُعقَل لمثلها أنْ لا تطلَب للنّكاح إلّا لعذر.

- الحمدُ لله، ليس بها عذر.

- ومَن يكون الخاطب؟

تلجلجَتِ الأمّ في تردّد بين الإفصاح والكتْمان، لكنّها أضحت في موقفٍ لا بدّ لها أن تفصحَ عن الخاطب، وإلّا حسبتها الأميرةُ كاذبة..

- إنّه سرحال.

رغم أنّ وقْعَ الاسم لم يكنْ جديدًا عليها، لكنْ شعرتْ سعدية وابنتُها بغيضِ ماءِ الحياة من وجْه الأميرة، وتكوّنتْ سحُبُ الغضب في وجْهها، وتمتمَتْ تلعنُه في سرّها، تكيلُ له ما أسعفَها عقلُها الغضوب من شتائمَ، لم تسمع سعديّة وابنتُها إلّا همهماتٍ لم تفهمْ فحْواها حتّى تفلّتت منها كلمةُ الملعون، فنظرتِ الأمّ إلى ابنتها بعد أنْ خُطِف قلبُها من وقْع الكلمة عليها، فحزمتْ إرادتَها، وسألتها:

- ماذا تقولين!؟ مَن الملعون؟

فقالتْ بوضوح:

- سرحال.

- وليّ أمر البلاد؟!

- ومَن غيره؟

- لماذا؟!

- يظنّ أنّ بناتِ النّاس لعبة، يشتهي مَن يشتهي، ويخطبُ مَن يخطب، ويعدُ مَن يريدُ بما يريد، ثمّ لا يجيب!!

- لا أفهمُ شيئًا!

- لقد قلتُ لك أنّي زوجُ أمير.

- نعم.

- لكنّي لم أوضّح أنّي أرملةٌ لأحد أمرائه المُخلصين، الذي تخلّص منْه وقتلَه، حتّى ينالني، ولقد راسلني بأنّه يطلبني للزّواج، فلم أمانعْ لأنّه لا زوجَ لي، فاستمهلْتُه حتّى أزوّج ابنتي، والتقاني أكثرَ من مرّة يؤكّد على عزمه أن يتزوّجني، لكنْ أن يخلّ بوعده لي ويطرق بابَكم للزّواج من ابنتكم، هل لأنّه سلطانُ البلاد وملكها يفعلُ ما يحلوا له، ثمّ إنّه في عُمر أبيها؛ بل أكبرُ من أبيها، ثمّ إنّه متزوّج من أميرة كبيرةٍ وجليلة، وابنةِ ملك!!

ارتجّ على سعدية ما تفعل، ولزمتِ ابنتُها الصّمتَ والذهول، فتمالكتْ سعديّة زمامَ أمرها، وردّت مدافعة:

- لكنّا لم نوافقْ بعد، بل كنّا في تردّد عن ذلك، وابنتي ترفضه.

بنبراتِ تشفٍّ وكَرْه قالت:

- خيرًا إنْ فعلتم، فها هو يتّضح على حقيقته، بعد أنِ اختطف البلادَ من وليّ نعمته، أبو زوجته، سيّدته كما كان يقول لها، وهي صاحبةُ فضل عليه، لكنّه خائن للمعروف، وأنا لن أقبلَ به فهو لا يستحقّ أن يطأ مخْدعي بعد أنْ خدعني وأنا السيدة الشريفة، وحريّ على كلّ حرّةٍ شريفة أن ترفضَه.

صمتتْ تلتقطُ أنفاسها، ثمّ لملمتْ رداءها، ووضعت نقابها وهبّت واقفةً تستأذن في عجلةٍ، ولم تتمسّك بها سعدية ولا ابنتَها؛ بل تركاها حتّى غادرتِ البيت في خطواتٍ كبيرة سريعةٍ كَكَلماتها التي راحت تنثرُها مِن فيها، فسمعت الجاريتان بعضًا منها يتّضح فيها لعنُ سرحال وتوعده، ولم تنقطع عنْ سبّه بعد ركوبها العربة الفخمة التي كانت تنتظرها بعيدًا، اعتمدتْ على يد إحدى الجاريتين وهي تنزلُ من العربة، ثمّ التفتَت إليهما كأنّها تذكّرت شيئًا.

- أيّتها الجارية، إيّاكما أن يعلم أحدٌ بتلك الزّيارة، وإلّا بعنُكُما في سوق النّخاسة يتلقّفُكما بيتٌ وضيع، تذوقان فيه المرّ.

فقالتْ إحداهُما من فوْرها:

- سيدتي، نحن لم نرَ ولمْ نسمعْ شيئًا؛ بل نحن لم نغادرِ القصر منذ شهر.

صمتتْ راضيةً عن إجابتهما، ثمّ جزّت على أسنانها وهي تحدّث نفسَها بعد أن اتّجهت ببصرها تجاه القصر:

- أمّا أنت يا سرحال سأعلّمك كيف تفكّر أنْ تتزوّج على عزّة الملك أغا!!

***

(٩)
سماهر

هدرَ الصوتُ الغاضب في الفضاءِ صارخًا في الجنود المتراصّة بتنفيذِ أوامره متوعّدًا المتلكّئين والمُبْطئين، منذرًا مَن تُسوَل له نفسُه من المتكأكئين حولهم الاعتراض، كان صوتُه الغليظ الجَهْوريّ ينبئ عن جسدٍ ضخم غليظِ القَسمات قويّ البِنية مفتولِ العضلات، وكان سوادُ بشرته يضيفُ إلى هيبتِه هيبة.

أمامَه قبعَ سحنون متكوّرًا على نفسه في بكاءٍ مرّ، لا يكاد صوتُه يبين.. دافنًا رأسَه بين قدميه، ينتفض جسدُه من شدّة بكائه، ولا ينفكّ يردّد:

- هذا حرام.

لم يجِدْ سماهر فيمَن تحلّق حوله مَن يعارضه، وهو مُمْتشقٌ سيفَه، شاهرٌ سوطَه الذي راح يشقّ الفضاء بقوّة كلّ فترة يزمجر كالرّعد، فتحاشاه الناس أن تصيبهم صاعقةُ طرفه، وانْكمشوا في أنفسهم حذِرين غضبتَه.

أصبحَ البناءُ الذي لم يكتملْ أثرًا بعدَ عيْن، كأنّه لم يوجدْ من قبْل، وأضحى أطلالًا خرِبَة، كأنّ زلزالًا خصّه بضربةٍ دون غيره مِن بيوت المدينة؛ فانْهار مكانَه.

عندما أتمّ سماهر عظيمَ فعله، واطمأنّ لتنفيذه على أكْمل وجْه؛ ضربَ بسوطه الفراغَ الذي بينه وبين المحلّقين حولَه فشقّه مُصْدرًا صراخًا أرْعبَ المتحلّقين، فانْكمشوا في أنفسهم وتقَهْقروا إلى الخلف.. ابتسمتِ الغبطةُ في قلبه، وكادَ يكتفي بصوتِ السّوط عن الكلام، تذكّر الأوامرَ الصّادرة إليه، فأعادها عليهم:

- هذا إنذارٌ لكم جميعًا، لا بناءَ على أرض المملكة إلّا بإذن صريح رسميّ من جلالة الملك سرحال، هذه أوامرُه، ومَن يخالفها سيعرّض نفسه للهلاك.

ثمّ انحنى بالقوْل إلى سحنون الرّابض على الأرض كأنّه خرقة بالية.. جاعلًا في نبرات صوتِه التّهديدَ والوعيد.

- أحمدُ الله أنّنا لم نعتقلك لفعلتِك الشّنيعة هذه، وأشكر جلالةَ الملك على عظيم عفْوِه عنك.

ثمّ أرسل نظراتٍ حادّةً قويّة متحديّة متوعّدة، إلى المحتشدين حوله، فتلقّوا رسالته الصّامتة، فغضّوا الأبصار، ونكّسوا الرّؤوس.

ابتعدَ وجندُه يثير غبارَ الأرض بسنابك خيولهم التي راحت تمشي الهوينى بخُيَلاء، كما أثار غبار الكره والحنْق عليه وعلى سيّده، لكنّ العجز المرتسمَ

على الوجوه كان ردَّهم الوحيد.

سرَتْ همهماتٌ في الواقفين، لم تتجرّأ أن تظهر حتّى تيقّنوا من ابتعاده؛ فعَلَتِ الحوقلة والحسبنة على استحياء وشيء من الدّعاء واللّعنات عليه، واقتربَ البعضُ من سحنون الذي لم يطرأ عليه أي تغيير إلّا رفْعُه رأسَه، وراح يدير عينيْه على أطلاله فزادت لوعةُ قلبه، فعلا صوتُ بكائه، فلم يزيدوا أنْ ربّتوا على كتفه، والبعض مسح على رأسه، لكنّ أحدًا لم يحرّك حجرًا من مكانه.

على المدى، أقبل عودة يكادُ ينكفئ من شدّة هرولته، تثير قدماه الغليظتان غبارَ الطّريق حتّى أصبح بينَ ركام بيته المتهدّم والمحتشدين ورأسُه تدور فيما حولَه، تمسح عيناه أطلالَ بيته، وهو ذاهل، يخبط كفًّا بكفّ، يقلّب عينيه تارةً بين سحنون الذي زادت حرقةُ بكائه عندما رآه فأخذَ جسدُه أشدّ انتفاضة بعد أنْ كاد يهدأ، وبين أطلال بيتِه المتهدّم وبين مَن بقي ممّن حضر الهدم، لم يجدْ عينًا تردّ على تساؤله: مَن فعل هذا؟ أو لماذا؟

قسماتُ وجْهٍ سكنَها الغضبُ رغم محاولته المستميتة أنْ يكظمه فقست، وجعَدَ جبينُه، وحدّة نظرته، حوقَلَ سرًّا، ثمّ ردّد بعض الأذكار في خفوتٍ كي يتمالك زمامَ غضبه، فيحجمه لكنّ الصريخ الذي اقتحمَهُم عنْ بعدٍ قضى على كلّ محاولاته..

- أدْركوني.

حتّى أدركَهم، فقال بكلماتٍ لاهثة غضْبَى مُنْكسرة:

- قد سرق جنودُ سماهر غنماتي.

هل هي الشّرارة التي قدحتْ نيرانَ غضبه، أم أنّ غضبه كان مضطرمًا تحتَ رمادٍ كاذب؟ فما انْتهى الصّريخ من نبئه حتّى اختطفَ ما بيدِه من عصا يهشّ بها على غنماته، ثمّ انطلقَ في أثر الجنود من حيثُ أقبَلَ الصّريخ.

***

(١٠)
صاحبي السّجن

اتّحدتْ غضبةُ سماهر مع غضبةِ سيّده سرحال على عودة، الذي تخطّى كلّ الحدود، واقترف جريمةً في حقّهما لا تُغتفر، مع أنّه لم يمسّهما بسوء، لكنّ ما فعله هو كلّ السّوء، كيف له أنْ يطارد رجالَ الشّرطة، بل يقبضُ على أحدهم ويوسِعُه ضربًا، كاد يزهِقَ روحَه ويستردّ ما في يده مِن أغنام الرّاعي، وكاد يعودُ بهم سالمًا؛ لولا إدراك سماهر وجنده له، وهو قريبٌ من موطنه، فألقوا القبضَ عليه، وانهالوا عليه ضربًا وركلًا، ورفقاءُ حيّه شاهدون، شاهرون الصمت!

هكذا تحدّث صاحباه في السّجن، بعد كلّ حفلةِ عذاب يتلقّاها على يدِ الجلّاد يأتون به مُنهارًا بين حارسي السّجن، لا تكاد قدماه تحملانه، فيُهْرعان إليه يتلقّونه من يدِ السّجان الذي يلقي به كأنّه متاع مُهمَل ليس له قيمة، فيمْسِكاه قبل أن يهوي على الأرض، ويحملانه حتّى ينيماه بجوار الحائط على بطنه بعد أنِ استوى ظهرُه عذابًا.

كانا شابّين يافعين غضّين، قد تركا مرحلة الصّبا منذ عهدٍ قريب..

- ما كان أغناك عنْ هذا العذاب!

جرّ على أسنانه في حنقٍ، وحدجَ صاحبَه وتذّرع بالصّمت دواءً علّه يريحه من النّارِ المشتعلة في جسدِه المُنْهك وقلبِه الموجوع، لكنْ كان صاحبُه الآخر أشدّ نكالًا عليه..

- ما أحمقَك، قد أهلكتَ نفسَك لغيرك، وما نفعك أحد!

شدّ قوسَ الصّبر حتى آخره، وتحلّم بهما، فأجابهما:

- لا يضيعُ عملٌ لله.

جذب نفسًا عميقًا يطردُ به بذورَ الغلّ من قلبه، ثمّ سرحَ ببصره يتخطّى حوائطَ السّجن وحوائطَ الواقع، وهو يقول:

- ولعلّها تكْفيرًا لأمثالها.

غابَ عن صاحبيْه إدراكُ ما يعنى من قوْل، وخيّل إليهما أنه أيضًا لم يدركْ ما يقول، وذلك لما هو فيه، وأنّ حمّى العذابِ هذه المرّة تكادُ تدركه، فلم يعنيا أنْ يسألاه عن كنْهِ ما قال.

أغمضَ عينيْه على ألمٍ وكمَد، شعر بهما ينخران قلبه فطفرتْ من زاويةِ إحداهما دمعةُ حسرةٍ على حاله، وتَخَطّفتْه سِنَة من النّوم، كان ينتفضُ في

نهاية كلّ منهما فيفتحُ عينيه عن آخرهما فزعًا مرّة فيهذي بكلماتٍ مبْهَمات، وجزعًا أخرى وألمًا، ارتاعَ صاحباه، وغابَت عنهما مشاهدُ يراها في تلك السّنَة، فمرّة يجد نفسَه فيها كأنّه من زمن قديم ومرّة يجد نفسَه فيها بحالته تلك معلّم صبيان، فينفرج قلبُه لها، ومرّات يرى نفسَه صاحبَ سوطٍ يُلهب ظهورَ وأجساد مَن لا يرى وجوهَهم فينقبضُ قلبُه، وينتفض جسدُه.

أفزعتْ حالتُه تلك صاحبيْه، ينظران إلى بعضِهما البعض في هلعٍ وخوف، وحسبَا أنّه يعاني نزعاتِ الموت؛ فانْكمَشا في مكانهما.. كلّما انتفض جسدُه انتفضا على أثرها حتّى نطقَ أحدُهما:

- ما لنا وهذا الكبدِ، وتلكَ المعاناة؛ ونحن لم نرتكبْ مثلَ جُرمه؟!!

- نعم، فما فعلناه لا يعدو سرقةَ بعض المحاصيل لسدّ جوعنا!!

- ما العملُ الآن؟ وهذا المأفون سَيَنْفَقُ هنا، وينتنُ علينا رائحةَ السّجن!؟

- فلنصرخ في هذا السّجان الذي يسومُه سوءَ العذاب، ثمّ يلقي علينا تبعاتِ فعْله.

- نعم، ليأتي هنا ويخلّصنا منه قبل أن ينتنَ رائحتنا.

ثمّ طفقا جريًا إلى باب السّجن مادّين بوزَهما من طاقته صارخين في صوتٍ واحد إلى السّجان الذي أجابهما في تكاسلٍ، وعلى مضض.. جاء بعد أنْ أزعجَه إلحاحُهما في النّداء، صارخًا فيهما:

- ماذا تبْغيان؟ عليكما اللّعنة!

- السّجين الذي جئت به منذُ قليل...

- ما له؟ عليكم جميعًا اللعنة.

- لقد مات.

- حسنًا فعَل.

بلا مبالاةٍ أجابَهما، وكأنّ الأمر لا يعنيه، وولّاهما ظهرَه، فصرخا فيه:

- إلى أين تذهب؟

قال وهو ما يزال موليًا عنْهما في تكاسل:

- وماذا تريدان أن أفعل؟

- ألن تأخذَه من هنا؟!

- لا.

قالها بثقةٍ وقوّة فركبَهما الهمّ والخوف، وألجمَهُما نفيُه مدّة، حتّى أحْياهما

مكملَا:

- سأخبر مسئولَ السّجن.

صمتَ قليلًا مفكّرًا، ثمّ استطردَ:

- أو لَعَلِّي أُبلّغ بنفسي سماهر قائدَ الجند؛ عَلَّي أنالُ مكافأة.

تقهقرا إلى أحدِ جدران السّجن وهما ينْظران إلى بعضهما البعض، ثمّ ينظران إلى الجسد المسجّى، الذي أضحى ساكنًا في رقْدته، فتأكّد لهما أنّه قد مات، وما وجدا في مكانِهما شيئًا يفعلانِه؛ فانزَوَيا بركنٍ قصيّ عنه فلزِمَاه.

***

(١١)
لمَزاكُ الصّحب

أقبلَ سماهر على الملك سرحال بعد أنْ أذنَ له الحاجبُ فتقدّم بخطًى واثقة قويّة تُنبئ عن شخصيّة جسورة جبّارة في أفعالها، فوجد سرحال ومعه الشّيخ عتمان ولا أحد معهما، ورغم أنّه لم يتفاجئ لكنّه تضايق، فظهر في خطواته التي راحتْ تدبّ على بلاط القصر كأنّها تشتكي غضبتَه، وقفَ أمامه وحيّاه بأفضل ما تكون، ثمّ رمق الشيخ عتمان، ولسانُ عينيه ينطق- لو كنّا وحدنا-، ففطنَ الملك لبواطن نفسِه فردّ عليه التّحية بصوتِه الجَهْوري، وسأله:

- أيّة ريحٍ طيّبة أتتْ بك إلينا؟

ورغمَ لمْز الملك له، لكنّه أخذها مديحًا فأشرقَ وجهَه مرغمًا:

- رياحُ الخير والبِشْر يا مولاي.

- بشّرنا يا قائدَ جندنا

- عودة يا مولاي..

- ومَن عودة؟

لا يعرف أقالَها الملك حقًّا مستفسرًا، أم ساخرًا!! شدّ قامتَه وجهرَ بصوته وهو يجيب:

- ذلك المأفونُ الذي غرّه شيطانُه أن يتصدّى لجنْدِ مولاي.

مال بجذعِه على مسند كرسيّه الضخم، فاتّكأ على ساعدِه بساعدِه، وقال بسخريةٍ خفيّة:

- نعم، ذلك المأفون الذي تطاولَ على جند قائدِ الحرس حتّى لم يسلمْ منه قائدهم.

ازدردَها سماهر بغصّة، وجزّ على أسنانه وهو يقول بتشفٍّي ظاهر:

- لقد أراحنا الله منْه يا مولاي، لقد مات.

- حسنًا فعَل، وإلّا ما خلص من يدِك البطّاشة.

- وهذا ما حدث بالفعل يا مولاي، لكنّه لم يتحمّل، كانت نفسه طائشة مغرورة جرّتْه إلى حتفِه.

- لكن.. قل لي يا سماهر، كيف لفردٍ مثلِه يتغلّب على جنودٍ أشدّاء؟

تلجلجَ سماهر، لكنّه لم يتردّد؛ فقد كان ذا عقلٍ متيقّظ:

- غرّه يا مولاي رفقُنا بالرّعيّة، وعطفُنا عليهم؛ فظنّ بالجند ضعفًا، فآخذَهم على غِرّة.

- حتّى أنت يا سماهر!!

رغمًا عنه تحسّس سماهر جرحَ جبهته، واڒْدردَ سخرية الملك:

- حلمُك يا مولاي الذي تظلّل به على رعيّتك حتى يعلموا ما نحن بجبّارين في الأرض، إنّما ننفّذ القانون الذي هو في صالحهم.

شعرَ الشّيخ عتمان الحاضرُ الغائبِ لمساجلة مولاه الملك وسماهر قد طالت، فتنحنَحَ كأنّه يستأذن في الكلام، فأرخى الملكُ جفنيْه وهو يولّي وجهَه قِبْلته، ففهمَ الشّيخ عتمان أنّ الإذنَ صدر له بالكلام؛ فلم يضيّعْه:

- هناك مِن النّاس مَن هُم كالأنعام بل هُم أضلّ، وهذا مصداقُ قولِ الله فيهم، فمنهم مَن يكون صنعُه موردُه المهالك وهو يحسبُ أنّه يُحسن صنعًا، وقد لقيَ جزاءه الذي يستحقّه.

كان سماهر ضائقَ الصّدر من تواجد الشّيخ عتمان بينهما، فضاق صدرُه أكثر، وخيّم الكدرُ على وجهه، فتعرّضُه كقائدِ شرطةِ الملك لسُخرية الملك، وهمزِه له ولمْزِه به؛ شيء مؤلم، وأكثرُ إيلامًا أنْ يشهدَ على هذا شاهدٌ، فحدّثتْه نفسُه أن يصيبَه من الأمرِ نصيبٌ فالتفتَ إليه سائلًا:

- ما حكمُه هذا يا مؤْلانا الشّيخ؟ هل يعدّ شهيدًا كما يدّعي بعضُ العوام، أم هو مجرمٌ يستحقّ؟

شعرَ الشّيخ أنّه أضحى في وجْه حربةِ قائدِ الشّرطة وهي مصوّبةٌ نحوه، إنْ أبعدها عنه وقال هو مظلومٌ ولا يعلمُ له جرمًا؛ فستصيبُ مولاه الملك في مقْتِل، فيعدّ هذا اعترافًا بأنّ مولاه قاتلٌ ظالمٌ، وجندُه من بعده، وأمّا إنْ قال هو مجرمٌ يستحقّ كلّ عقاب؛ سيكون قدْ ظلمَ شخصًا ليس بينهما ما يسوء، لكنّه اتّخذ أيْسرَ الأمْرَين عليه وأصلحَهما له... فهتفَ منفعلًا دونَ مبرّر إلّا أنْ يُرضي مؤْلاه:

- هو مجرمٌ لا شكّ في هذا.. كيف له أن يعترضَ قراراتِ جند مولاي! التي ما تركت معسكراتِها إلّا لزرع الأمنِ وحصاد الأمان.

- إذًا، ليس بشهيد، كما قد يدّعي المأفونون من العامّة والدّهْماء؟!

هكذا سأله سماهر بعد أنْ تحوّل بكلّ وجهِه ناحية الملك، فاستمرّ الشّيخ في كلامه متّخذًا هيئة الخطيب على المنبر، وهو يقول:

- بل ظالمٌ لنفسِه غشوم، كان لا بدّ أن يتخلّص منه ومِن أمثاله؛ فهم ذوو رائحةٍ نتنة، إنْ بقوْا أفسدوا الهواءَ على الرعيّة.

اشرأبّت عنقُ سماهر، وانتفختْ أوداجُه، وزادَ رسوخًا في الأرض، وقال في حماسةٍ موجهًا كلامَه إلى الملك:

- فليأذنْ لي مولاي أنْ أجعله عبرةً، حيًّا وميتًا، فأجعلُ الجند يطوفون به حواري وأزقّة البلد، حتّى يعتبرَ به كلّ حيّ بما حدث له، ويكون مثالًا لمَن تسوّل له نفسُه أن يهمسَ بكلمةٍ في حقّ العدل والأمن والأمان الذي يرْخيهما مولاي الملكُ على الرّعية.

أجابَه الملك بإشارةٍ من يده كأنّه صكّ ممهورٌ بالموافقة، وإشارةٌ له بالخروج، فانْحني يلقي التّحية بإجلال وإكبارٍ زائد، وتقهقَرَ بضعَ خطواتٍ قبل أن يولّي منصرفًا.

رغمَ خروج سماهر إلّا أنّ الجوّ ظلّ مشحونًا بطيفه الغضوب، كأنّه يجثمُ على وجودهما حتّى وهو غير موجود، فدفع الشّيخ عتمان أنْ ينْحَى بالحديث منحًى محبّبًا إلى قلب الملك يستغلّ به مقابلة سماهر بالملك، فقال بعد أنْ طافت عيناه خفيةً بالمدخل البعيد، ورمقته خاليًا من أيّ متلصّص:

- ما أحسبُ أنّ مولاي يصرفُ الرّأي عن اتّخاذ زوجة أخرى تجلب له وليَّ العهد بعد ما رأى من قائد حرسِه وشرطتِه.

رفع رأسَه، ونظر إليه بعينيْن شبه مغمضتين تسرحان فيما يقول:

- الحقّ ما تقول يا شيخ عتمان، فالضعفُ الذي بات يظهرُ به سماهر، رغم ما يتظاهر به من قوّة؛ يدفعني دفعًا لاتّخاذ سندٍ وعونٍ قويّ، ويكون هذا السندُ منّي، وكم أتمنّى أن يلوح هذا اليوم في الأفق فأخطفُه خطفًا، وأتخلّص به من أيّ ضعف يصيب مُلكي.

- لا أعرف ما أصابَ سماهر! فما كان هكذا.

- نعمْ، لقد كان مثلَ اسمه كالرّمح الطويل تتكسّر عليه الدروع مثلما كان منذ عشرين عامًا.

- كان وقتَها جنديًّا في حرس الملك السّابق، يظهر قوة الشكيمة والجرأة.

- نعم، كان من القوّة أنِ اعتمدتُ عليه في تثبيت ملكي فيما مضى، لكنّه الآن أضحى ضعيفًا أمام شخصٍ لا يعدّ إلّا محفّظًا للقرآن، كاد يرْديه مجندلًا لوْلا الجند أغاثوه.. يظهر أنّها عَواملُ الزّمن يا شيخ عتمان.

تنهّد الملك كأنّه يستعجل القدرَ فيما يريد، ثمّ بدا له أن يُمضي الوقتَ في ترفيهٍ، فما هناك من أحداث يريد أن يبتّ فيها؛ فدعا الخدم بتجْهيز رقعة الشّطرنج بالشّرفة الغربية المطلّة على جبل المقطم الرابض في مكانِه كالطّود في شموخٍ وإباءٍ يتحدّى الزّمان بما حوى من ملوكٍ وسلاطين، وما بين قصره والجبل من بيوتٍ تتشكّل على حسب مستوى قاطنيها من غنًى وفقر،

وأخذ يرصّ قطعَ اللعب بجوار بعضٍ، كلّ في مكانه، ثمّ تحسّس قطعة الملك فوضعَها برفق، ونظر نظرة حانيةً إلى الوزير في تمنّي، حتّى إذا استوى كلّ في مكانه، ثمّ شرع في تحريك قطعِه كما يحبّ دائمًا أن يكون المبادرَ في كلّ شيء، ويقابله الشيخ عتمان في تحريك قطعه، وكان في نفس الشّيخ أن يتيح دائمًا الفرصةَ أمام الملك ليتغلّب عليه بسهولةٍ غير مفضوحة، وحدث ما أراد ثمّ أعادا رصّ قطعِهما مرّة إخرى استعدادًا لجولة ثانية، وتساءل الملك إمرارًا للوقت، وفتح مجالٍ للسّمر على مشروعيّة تلك اللعبة، فأجابه الشّيخ في ثقةٍ أنْ لا شيء فيها ما دامت تتّخذ للتّسلية والسّمر، وأضاف زيادةً أنّ النّرد أيضًا لا شيء فيه، ثمّ زادَ وأفاض بآراء مَن سبقه مِن العلماء، وفنّد ونقدَ كلّ رأيّ، ونفدَ النّهار بينهما، حتّى طلّ الغسق عليهم يزيّن بضوئه الأحمر صفحةَ السّماء، فازّيّنت بأجمل مظهر للسّماء، ثمّ تبدّت أقوى النّجوم لمعةً في حلْكة اللّيل الذي نشر سلطانه في غيبة القمر، باتت الدّنيا ظلامًا إلّا الشّرفة التي يجلسان بها، فقد انتشر فيها ضوءُ القنديل المعلّق بسقفها، والتي قدحت بزيْت الزّيتون، فكان ضوؤها مثلَ ضياء النهار.

على البُعد باتّجاه المقطّم، ظهرت مشاعلُ قليلة تسير في طابور متراصّة حتّى تجمّعت في بقعةٍ في حضن المقطم كانت قد جذبتْ عينَ الملك، فراح يطالعُها بغير اهتمام، حتّى طال مكوثُها فأخذ يتابعها بتعجّب لمكوثِها في موضعها وقتًا ليس بالقصير، ولاحظ انضمامَ مشاعلَ أخرى أخذت تكثُرُ فأضحتْ بقعة منيرة في ظلمةٍ حالكةِ السّواد، واستحوذَ مشهدها على اهتمامِه فتوقّف عن اللّعب، وتبعه الشيخ احترامًا له وفضولًا لفضّ سرّ ذلك التجمع الذي ظهر على غير العادة، حتّى خيّل إليهما أنّ أهل البلد جميعًا انتقلوا هناك؛ فراحَا ينظران إلى بعضهما وقد نطقَ وجهاهُما تساؤلًا حتّى صرخَ في الحاجب أن يأتيَه بالخبر، فما لبث غيرَ بعيدٍ أن رجع وفي جسده انتفاضةُ مضطربِ الجنان، متلعْثم الكلام، لاهث الأنفاس، وصرخَ دون سؤال:

- لقد عادَ إلى الحياة.

***

(١٢)
رضوان العطّار

انتشى سعيد بعد أنْ فكّت روحُه من عقال الضّياع الذي كان يقيده، والهمّ الذي لازمَه مدّة، فشعر أنّ روحه عاد إليها نشاطُها بعض الشيء بعد أنْ أخذ سبيله في تنفيذ وصيّة صديقه ابن حنبل، فتلاشى كدرُه وحزنُه بعد أنْ شرع يبيع ما يملكُ من بضاعته بأقلّ من سعرها المُعتاد، ويتهاون في البيْع للزّبائن أو لأحد التّجار بهامشِ ربحٍ زهيد، أو دونَ ربحٍ، ويبيع أملاكه في السرّ نقدًا أو بصكوكٍ مؤجّلة.. فعادَت إليه ثقتُه، وراح يعيدُ سيرته الأولى يشارك المشترين رأيَهم والباعةَ ثرثرتَهم، وأضحى يجلس أمام متْجره كعهْدِه.

صباحًا استقرّ مكانَه على كرسيّه أمام متجره، يحتسي قهوتَه المُعتادة بعد طعام الإفطار، ويستمتع بشمسِ الصّباح، بدا هادئًا يتأمل الرّائحين والغادين المارّين أمامه بالسّوق، فلاحَ له عن بعدٍ شخصٌ، ظهر في هيئة شخصٍ يعرفه، ينهب الأرض بخطى قويّة، بدا فيها الجدُّ والاهتمام، فانتبَه أنّ وراءه نبأ ما، حتّى إذا اقتربَ منه عرفَه وعرفَ أنّ ما جاء به إلّا أمرٌ جلل، أخذ يعمل الفكرَ في استيضاحه، لكنّه فشل.

ابتسمَ وهو يصافحه.. راح يتفحّص وجهَه علّه يستشفّ خبرَه، لكنّه لم يرَ إلّا علاماتِ الغضب باديةً بقوّة على وجهه، فبدا متجهّمًا نافرًا عضلاتِ الوجْه، مشدودَ الجلد.

جلسَ على الكرسي الذي أحضره صبي الوكالة.. رحّب به سعيد فأمرَ الأخيرُ صبيّ الوكالة أنْ يحضر نرجيلةً من المقهى المجاور مع حلبةٍ ساخنة، فما لبث غيرَ بعيدٍ حتّى أحضر طلبه، فارْتشف من كوبِ الحلبة بعضَ الرّشفات الصّغيرة السريعة، ولم يعبأ بضيق أخيه الخفيّ من دخانه، فاستمرّ بعضًا من الوقت انْفكّت على أثرِه بعضُ عقد جبينِه الغاضبة، وقال بصوتٍ يشي بالغضب.

- أهكذا أعلمُ من الغريب أمرَ سفرك؟

أُخِذ الحاجّ سعيد القمّاش من شدّة المفاجأة، وشعر بجفافِ حلقه مرّة واحدة، فمدّ يدَه دون وعي إلى كأس الماء الموضوع أمامَه، فتناوله بيدٍ بدتْ مُرتعشة، فرشفَ منها بعضَ رشْفات ثمّ أعاد الكأس مكانه وهو يتصنّع اللامبالاة.

- أمرٌ ليس بجديد.

اعتدلَ الضّيف في جلسته، وواجهه بغضبٍ بدا حقيقيًّا:

- لكنْ عندما تبيع بيتنا هذا هو الجديد!!

دارتْ عينا سعيد حولَهما مستطلعة هل من متصنّت أو مستمع لهما، حتّى إذا

اطمئنّ قال بحدّة يُخفيها:

- هو بيتي وأنت أعلمُ بذلك.

تراجعَ الضّيف بظهره إلى الخلف، وأخذ نفسًا عميقًا:

- لا أنسى أنّك اشتريتَ نصيبي فيه، وأنّه الآن بيتُك وحدك.

ثمّ مال إلى الأمام قليلًا:

- لكنّي أشمّ فيه عبقَ سنين الصّبا، وأرى ذكرياتِ الماضي، ذكرى طفولتنا معًا، جرْيَنا ولعبَنا فيه ونشأتَنا وشبابَنا.

كسا سعيد وجهَه بالجديّة:

- هذه أشياء نعلّق أنفسنا بها كي نظلّ مكاننا، وإنّنا أينما نحلّ في أيّ مكان نضعُ عطرًا وذكرى.

كسا وجهَ الضيفِ الاهتمام، ولبس رداءَ النّاصح:

- أنا لا تهمّني إلّا مصلحتك.

تراجعَ سعيد إلى الخلف حتّى لامس ظهرُه ظهرَ مقعده، وهو مازال على جديّته:

- رضوانُ يا أخي، أنا أعرفك، فألقِ ما جئتَ من أجله.

- ما جاء بي إلّا مصلحتُك.

ثمّ تراجع قليلًا إلى الخلف، وكاد ظهرُه يستقيمُ في جلسته، وتنحنح وألبس نبراتِ صوتِه الأهميّة:

- وانظرْ أيّ مساعدة أسْديها لك حتّى لا تخسر البيت.

أجابَ سعيد بنبرةٍ حادّة يريد بها إنهاءَ الحديث:

- ليس هناك خسارة.

تحرّك رضوان بمقعدتِه على كرسيّه إلى الأمام قليلًا:

- الأقربون أوْلى بالمعروف.

راحتْ تنقشع سحبُ جهلِ سعيد بسبب زيارة أخيه رضوان عن عقله، ولاحت بارقةُ المعرفة تومضُ وتعلمُه نيّةَ أخيه الحقيقيّة، تنبؤه عن زيارته، فقال يمدّ حبالَ التّواصل ليزيل بها ما بقي ممّا يجهل ويستوضح الأمرَ برُمّته:

- ما قصّرت مع الأقارب في معروف، ومهْما عانيت من بعضهم، لكنْ لا أقطعهم خيرًا قدرتُ عليه امتثالًا لوصايا النبيّ الكريم.

- أعرفُ أخي الحبيب، وهذا ما شجّعني للحديث معك.

لانتْ صفحةُ وجه رضوان، وبشّت، وفترَ ثغرُه عن ابتسامةٍ غير أنّ سعيد قبض قلبه ونفرَتْ أعصابه، فأكمل رضوان:

- وأنا أوْلى ممّن عرضت عليه شراءَ البيت، وعلى استعدادٍ أن أشتريه منك بما تريدُ وزيادة.

صمتَ هنيهةً قبل أن يلبس صوتَه رداءَ الحزن، ويكمل:

- رغم أنّي غاضبٌ منك أن تعرض البيت للبيع، ولم تخبرني لوْلا أنّ الحاج بدران صديقُ والدنا، الله يرحمه، جاء إليّ يستسمحني في أنْ يشتري البيت مخافةَ أن أعترضَ عليه، وأتدخّل في البيع من بابِ الجار أوْلى بالشُّفعة.

ثمّ خلع رداءَ الحزن عن صوتِه، وألبسه رداءَ الحزم:

- لكنّي أكّدت له أنّي سأشتري البيت؛ فهو بيتُ أبينا، ومرتعُ صبانا، وأيّامُنا فيه لا تحصَى.

جزّ سعيد على أسنانه، فسُمع لها صرير، وهو يكاد يلعنُ الحاج بدران- في سرّه- عن كشفِه أمرًا أسَرّ له به بعدَ أنْ نبّه عليه مرارًا أنّ الأمر بينهما، ولا يريد أحدًا أن يعلم، لكنّ الطّمع في أنْ ينال البيت بسعر أقلّ ممّا عرضه عليه؛ جعله يُدْخِل أخاه في الأمر بحجّة أنْ لا يعترض عليه، أو يسبّب له مشاكل، وهو يعلم أنّ أخاه لا يستطيعُ أن يشتريه بذلك السّعر الذي فرضه عليه، ولا حتّى بنصفِه، رغم أنّه يعدّ أقلّ من حقّ البيت الحقيقي، فيرضخ سعيد لأنْ يخفض السّعر حتّى يبيعه نقدًا، ولا يبيعه آجلًا لأخيه، لكنْ ما خفي عن الحاجّ بدران أنّ الحاجّ سعيد لا يرضخُ للابتزاز، واضطرارُه لبيع ممتلكاته والسّفر هو أنّه لا يريد أن يرضخَ لابتزاز أحد.

لزمَ رضوان الصمتَ، وراح يجذب أنفاسَ نرجيلته، ونظرَ سعيد إليه، وحلقاتُ الدّخان تخرج من فيه وأنفِه كأنّه مدخنةُ عربةِ بطاطا يدفعُها صاحبها أمامه، ودخان حطبِها ينفرُ من مدخنتِها في يوم شتاء مغيّم السّماء، فتتداخل غيومُ سمائها مع دخان نرجيلته، فقال سعيد فجأة:

- بعتُ لك.

توقّف رضوان عن تدخينه مأخوذًا، وسعل أكثر من مرّة وهو يحملقُ في أخيه كالمصعوق غيرَ مصدّق، فأكمل سعيد:

- بشرط..

ردّ رضوان سريعًا:

- وأنا قبلت كلّ شروطِك.

- سأبيعُ لك البيتَ بنفس السعر الذي عرضتُه على الحاج رضوان.

تجمّعت غيومُ الصّدمة على وجْه رضوان التي لم يعبأ بها سعيد، وهو يكمل:

- سنكتبُ عقدًا بذلك، وتدفع الآنَ ما معك من مال، ثمّ نكتب صكوكًا بالمال الباقي دينًا عليك.

تدلّى فكّ رضوان كالأبلَه، ولم يحرْ جوابًا وهو يستمعُ لسعيد..

- ولنْ أطالبك بأيّ منها، وستدفع كما تشاء أن تدفع؛ في عامٍ أو عاميْن، أو حتّى عشرة..

راحت غيومُ الصّدمة تنقشعُ عن وجْه رضوان، وينيرها شمسٌ مشرقة:

- ولنْ أطالبك بها ما حييت.

ازدادَ ضياء وجْهِ رضوان، وأشرق وانفرجَ فكّاه بابتسامةٍ عريضة:

- لكنّها دينٌ عليك تردّها إلى أهل بيتي بعد وفاتي.

- أطالَ الله عمرك أخي الحبيب، وجعل يومي قبلَ يومك.

كانت حروفُ كلماته ترقصُ طربًا، فأبعدَه سعيد بهدوء، بعد أن هجمَ عليه يعانقُه ويقبّله، ويكاد يبكي فرحًا، فعاد رضوان إلى مقعده وهو يكاد يرقص، وهُما كذلك أقبلَ عليهما فتًى يافعٌ، ممشوقُ الجسد، قمحيّ اللّون، مفتولُ العضلات، ذو وجهٍ طويل مثل جسده، زاد في سعيه عندما رآهما على تلك الحالة فأشرقَ وجهُه وهو يلقي عليهما السّلام، فردّ سعيد بوُدّ، واقتضب رضوان حتّى إذا حازهما، قال:

- هذا يوم سعدي برؤيتكما معًا.

ردّ سعيد مرحّبًا:

- مرحبًا بك يا محمود، كيف حالك؟

قاطعه رضوان بعبوس:

- ما جاء بك؟

ازدردَ الشّاب إهانة رضوان، وقال مازحًا:

- جئتُ أشاهد هذا العرسَ السّعيد.

أجاب رضوان في حدّة مستنكرًا:

- أيّ عرس يا ولد! تأدّب فيما تقول.

أجابه سعيد بسرعة:

- ابنُك لم يقصد سوءًا يا رضوان، فهو رآنا معًا، وقلّ ما نكون كذلك؛ فأسعده الموقف.

- هو كذلك يا عمّاه.

- لا عليك، مِن أين أتيت؟

أجابه رضوان في حدّة:

- مِن أين تظنّه جاء؟ أكيد من أحد مواخرِه.

أجاب الابنُ مازحًا:

- لا توجد مواخير بالنهار.

فأصابتْه نيرانُ نظرة أبيه الغاضبة، فأكمل:

- والله يا عمّاه ما خطّت قدماي أي مكان سوء.

فقال رضوان متهكّمًا:

- وأين تقضي نهارَك وليلك؟

- في العمل.

- أيّ عمل؟ وأنت لا تردُ حانوتَ أبيك أبدًا.

خطا الابنُ خطواتٍ حتّى صار بجانب عمّه:

- والله يا عمّاه لا أنفكّ طولَ النهار وزلفًا من الليل بين تخليص أمور التّجار الوافدين على البلاد، فأبحث لهم عن سكنٍ أو مكان يخزّنون فيه بضاعتَهم، أو البحث لهم عن مشترٍى لها، أو أعرّفهم طرَيقَ السّوق والتّجار، فيرزقني الله من فضله.

قاطعَه رضوان بحدّة:

- ما لك وهذا الشّقاء المُعجل، ألا تجلسُ بحانوت العطارة، تجارة أبيك وجدّك وأنتَ مِن بعدهم!!

- ليس لي في العطارة.

خفضَ رضوان من صوته، وقال متباكيًا:

- يا لخيْبتي فيك وفي أخيك حسن.

وكأنّ أباه ألقى إليه بطوق النّجاة، فخلّص نفسه من غضبه:

- لقد أرسل لنا رسالة.

ظهرَ الاهتمام على سعيد، فاشرأبّ تتردّد عيناه بين يديه، تبحث عن الرّسالة،

وخيّم الحزن والكآبة وجْهَ رضوان، حتّى قال سعيد:

- وأين الرّسالة؟!

- يقول إنّه بخير، وفي أحسن حال، وقد نال قدرًا وافرًا من الرّزق، وإنّه سيعود قريبًا.

انتفضَ رضوان قائمًا وهو ينظرُ إلى ابنه شذرًا:

- بعد خمْس سنوات دونَ أخبارٍ يبعث لنا رسالة أنّه سيعود قريبًا، يا لخيْبتي في أولادي.

ثمّ يكمل وهو يهمّ بالانصراف:

- أستأذنك يا حاجّ سعيد، وسأعود إليك بعد المغرب بما اتّفقنا عليه حتّى نُنهيه، السّلام عليكم.

تابع الابنُ وعمّه رضوانَ حتّى اختفى عن الأنظار، فعاد سعيد بنظرِه إلى ابن أخيه وهو يسأله:

- هل هذا ما قاله حسن فقط؟

ظلّ الابنُ يعلّق ناظريه حيث سار أبوه، وغاب عن الأعين، حتّى إذا اطمأنّ أنّه لن يعود أخرجَ من طيّات ملابسه رسالة مطويّة وهو يقول بصوتٍ خفيض:

- هذه الرّسالةُ التي بعثَ بها.

ارتسمتْ علامات التعجّبِ على وجْه سعيد، وهو يتساءل:

- ولماذا لم تخرجها وأبوك هنا؟!

- هذا ما وصّاني به *حسن*، فهو مرسلُها لك أنتَ يا عمّاه.

انصرفَ محمود بعد أنْ ناول عمّه الرّسالةَ وتركَه يفضّ فحواها بنفسه.

***

(١٣)
الشّرفة

وكأنّهما لم يغادرا مكانَهما منذ رأوا ذلك المشهدَ، وجاءهم الحاجِبُ ببيانِه رغمَ مرور أكثر من شهر، لكنّ حُسنَ ترتيب سرحال للأمر، واستغلالَه على أحْسن ما يكون؛ أعاد الهدوءَ إلى نفسه، فراح يشاركُ الشّيخ عتمان اللّعبَ في نفس الشّرفة كأنّه أضحى يستبشرُ بها الخير.

مدّ الشّيخ عتمان أناملَه الغليظة، وأطبقَ على قطعة الشطرنج يحرّكها خطوةً إلى الأمام، ثمّ تنحنَحَ، ونظر إلى سرحال بجفونٍ مُسْدلة وهو يقول:

- حسنًا فعلتَ يا مولاي في أمر عودة.

نظرَ إليه سرحال فانفرجَ ثغرُه بابتسامةِ زهوٍ ماكرة، ثمّ اتّكأ على مسندِ كرسيّه كأنّه يثبت جلستَه في مكانه، وقال يلَقي درسًا علّمته السنين إيّاه:

- الأمور تعرَض أمامَك فلتتناولها من حيث تستفيد.

لاذَ عتمان بالصّمت ولم يحرْ جوابًا، فشعرَ سرحال أنّه لم يفهم مقولتَه؛ فرفع رأسَه إليه مصوّبًا نظرَه نحْوه:

- كلّنا معرّضون للمشاكل، وفي الغالب يرى الناس أنّ المشكلة تأتي إليهم بالضّيق والحزن، لكنْ أنا أنظر إليها كأنّها هدايا الأيّام لي فأتناولها من حيث تخدمني، وكلّ أمرٍ له أكثرُ من باب، فأطرق البابَ الذي يدرّ النّفع.

ثمّ نظرَ إلى رقعة الشّطرنج، وأكمل:

- كنقلِكَ الفيل في اللعبة الفائتة، أنت تنتظر منّي أن أحرّك الوزير أمامَ الفيل كي أحمي الملك وأضحّي بالوزير، وتظنّ أنّ هذا فيه فوزُك بالدّور، لكنّي أرى في هذا المزنق الفوزَ لي، فلو نظرتَ إلى بقيّة قطعك لوجدت أنّك بتحريك الفيل قد كشفتَ الملك ولم يعدْ يحميه أحدٌ إلّا عسكري قريب سأتخلّص منه بحركةِ حصانٍ واحدة، وهكذا أنقَلبُ مسيطرًا عليك.

نظر الشّيخ عتمان إلى رقعة الشّطرنج، وأعملَ الفكْر، حتّى إذا ما استقرّ رفعَ رأسَه إلى سرحال، وعلى شفتيه ابتسامة:

- مولاي، أنت لا تبارَى في أيّ شيء.

قهقه ضاحكًا فبانت نواجزه، ثمّ حوّل جسدَه كلّه باتّجاه سور الشّرفة، ثمّ نهضَ فنهض على أثره عتمان، وظلّ مكانَه، فتقدّم سرحال نصفَ خطوةٍ حتّى حاز السور، ففرَدَ ذراعيه عن آخرهما، ووضع كفّيه على السّور، واتّكأ عليهما، وراح يرسل بصرَه باتّجاه المقطّم، ولاذ بالصّمت قليلًا، فلاذ بصمتِه الشيخُ عتمان

ّ

ولم يتكلّم.

- لم أعرف يومًا أنّ هذا الجبلَ سيكون عونًا لي.

ثمّ إبتسمَ في سعادة، فتحرّك الشّيخ عتمان قليلًا حتّى أصبح يوازي كتفَه إلّا قليلًا، وأعدّ نفسَه لخطبة مديح، فقاطعه مولاه قبل أن يبدأ:

- كلّ الناس تنظر إلى جبل المقطم بخوفٍ ورهبة.

صمتَ هنيهةً ولم يسمع إلّا صوتُ أنفاسه وهي تتردّد:

- إلّا أنا، فأشعرُ فيه المددَ والعون، فأنا أرى نفسي مثله، رغم أنه وحيد لكنّه كبير، ورغم أنّ الوحشة تَلُفّه لكنّه ثابت، وقد تحقّقت نبؤتي فيه، أو قلّ حبّي له؛ فأمدّني بمَن سيخلّصني ممّن يشكّلون لي صداعًا برأسي.

تنحنحَ الشّيخ عتمان بضعفٍ قبل أن يقول:

- لقد تعجّبت يا مولاي ممّا فعلتَ مع عودة في أوّل الأمر، لكن الآن أحمدُ فعلَكَ، وأكبُرُه؛ ففيه نفاذُ بصيرة.

لفّ سرحال حتّى أضحى جسدُه كلّه مقابلًا للشّيخ عتمان، وظهرُه إلى سور الشّرفة، فأسنده عليه بعد أنْ وضع يديْه فوق بعض، بيْن جسده والسّور، ثمّ اتّكأ عليها:

- ما حدثَ يوم جاءنا نبأ موت عودة، وما قرّر سماهر أن يفعله به انتقامًا منه بأنْ طاف به شوارعَ البلد وأزقّتها مكشوفَ الوجْه عاريَ الجسد، حتّى يكون عبرةً للنّاس كلّها، وأنفقَ جل يومِه في ذلك حتّى غربتِ الشّمس واستولتِ الظّلمة على المدينة، وزاد إلحاحُ الناس وترجّيهم له أنْ يتركهم يدفنونه، وأقسمَ كثيرون أنّ الهواء قد تغيّر من رائحته حتّى رضي في النهاية بعد أن دخل الليلُ فتعجّل الناس بغسله وتكفينه، ثمّ حمله نفرٌ قليل يتخبّطون في حلكة الليل، تنير لهم بعضُ المشاعل القليلة فوضعوه على الأرض حتّى يلحّدوه، وصادفَ أن طلب أحدُهم مشعلًا لينيرَ له مكانَ الحفر فتحرّك صبيّ كان يمسك بمشعلٍ في يده لكنّه تعثّر في حجر، فسقط منكفئًا على وجهه، وطاح المشعلُ من يده فأصاب وجْهَ عودة، ولسعتِ النار جبهتَه فقام صارخًا مذعورًا من فرط الألم، واتّضح أنّه لم يكن ميتًا؛ بل كانت سكتة أصابته رغم أنّ بعضَ العوام أقسموا أنّه قد مات وشيعَ موتًا، وتغيّر جسده وبانت رائحته، لكن يقسم البعضُ الآخر- من العوام أيضًا- أنّه بالفعل مات، ولكنّ جسده لم يتغيّر، وهذه معجزةٌ أخرى له، بل قد طاله روثُ بعض خيول العسكر وهُم يلفّون به المدينة فعادوا به فرحين مهلّلين صاخبين بين ذكرٍ وشكرٍ وتهليل وتكبير، وأضحى عودة بين إشراقةِ شمس وغروبها وليًّا وصاحبَ معجزة، فلو تركته على ذلك لقلبَ عليّ الأمور، وسبّب لي المشاكل والعقبات.

تنهّد سرحال بعضَ الشيء كأنّه يستريح فاستغلّها عتمان مكملًا:

- واستغلَلْتها أنتَ يا مولاي، وجعلته في صفّك ومن جندك.

- نعم، وكاد يهدم كلّ ما خطّطت له برفضه أن يكون قائدًا لفرقة صغيرةٍ تحت قيادة سماهر، ولا أعرف ما الذي حوّل رفضه إلى قبول!!

- المهمّ يا مولاي أنّه قَبِل.

- نعم، وقد أثبت تفوّقًا وحُسنَ إدارة.

- النّاس تعتقد فيه.

- النّاس فيما يعتقدون مذاهب، ولو عندي منه عشرة؛ لفتحتُ به الشّامَ والحجاز، وضممْتُهما إلى مُلكي.

- سيكون لك ما تتمنّى يا مولاي وتريد.

تنهد سرحال بعمق، ثمّ دار على عقبيْه يواجه حبيبَه المقطم، وأرسل بصرَه يلوذُ به، يشاركه الصّمت، حتّى طالَ واحترم الشيخ عتمان صمتَه، فراحَ معه يتأمّل ذلك الجبلَ الشّامخ، ويبحث فيه عمّا يعجبُ مولاه، حتّى قاطعه وهو يقول:

- حال عزّة الملك لا يعجبني يا شيخ عتمان.

- ولمَ يا مولاي؟

- رغم أنّها تبشّ لي حين تراني، وتزيد في حبّها لي وإقبالها عليّ، لكنّي أحسب أنّ هناك أمرًا ما يشغلها.

- خيرًا إذًا يا مولاي.

- لا أحسبه كذلك، ولا أحسبه بعيدًا عمّا تحدّثنا فيه.

- ولي العهد يا مولاي؟

- نعم.

- يا مولاي، كنْ هادئ البال، حتّى لو عرِفت فما أظنّها تكره لك الخير، وأنْ يكون لك وليّ عهد، يحملُ اسمَك وملكَك من بعدك.

- ليست عزّة الملك التي ترضى بذلك، فأنا أخبُرُها جيدًا.

- يا مولاي، النّساء يحزنّ قليلًا، ثمّ يعُدْن لحالة اللّين والخضوع.

- إلّا بنت الأغا، فهي لن تقبل ذلك أبدًا، فأنَفَتُها وعِزّةُ نفسها ستحول دونَ ذلك، ولا تنسَ ما فعلته لي مع أبيها، فهي لن تنسى.

- ذلك لن يزعجَ مولاي، فأنتَ عليه قدير.

- ليس مع عزّة آغا يا شيخ عتمان، فرغم ما تظهر عليه إلّا أنّها لا يؤمَن فعلَها.
- وما نويتَ عليه يا مولاي؟
دار مرّة أخرى على عقبيه، فولّاه ظهرَه، واتّجه إلى سور الشّرفة الجانبي:
- فلنُرْضها يا شيخ عتمان، ولنصرفَ عنها وساوسَها، ولندسّ إليها مَن يعلمها أنّني لا أنتوي شرًّا لها أبدًا، ولا أفكّر في الزّواج عليها.
- فلتتخيّر يا مولاي مَن شئت مِن رعايك؛ فهم تحت أمرك.
- لن أجدَ خيرًا منك يا شيخ عتمان.
***

(١٤)
البيت

خلا المسجدُ بعد أن قُضيَت صلاة العشاء، وانتشر المصلون إلى دورهم إلّا من بعض الرّكّع والسّجّد.. ظلّ عودة مكانَه يردّد أذكار الصّلاة، فيمرّر إبهامه على أنامل يدِه اليُمنى بحركةٍ رتيبة متكرّرة، ينتهي من العدّ خمسة عشر حتّى يعود من الأوّل، وتلازمُه حركة شفتيه بهمهمةٍ غير مسموعة، حتّى اقترب المسجدُ أن يفرغ.

ظلّ عودة في مكانه قد أحْنى ظهرَه، وكادت تلامسُ جبهتَه ركبتاه في جلسته التي كان عليها في الصّلاة لم يغيّرها، ولا يتحرّك إلّا عندما يأتي إليه أحدُ المصلّين يصافحه فيرفع رأسَه ينظر إليه، وعلى وجهه آياتُ التعجّب، ثمّ يمدّ له يده فيكاد المصلّي أن يختطفها ويقبّلها لوْلا أنّه يسحبها من بين يديه بسرعة، ووجهُه يصرخُ بالدّهشة، ظلّ على تلك الحالة وقتًا، وعندما تكرّر الفعل من أكثر من شخصٍ استوى جالسًا على مقعدتِه بعد أن سحبَ رجليه من تحته، ثمّ نصبهما أمامه مثنيًا ركبتيْه، وضمّهما إلى بعضهما، وأحنى ظهرَه حتّى لامسا صدره، ثمّ طوّقهما بكلتا ساعديه بعد أنْ دفن رأسه بينهما، ثمّ غاب عن الدنيا بترديدِ آيات الذّكر، فسحبتْهُ سحبُ الخشوع التي راحت تتجمّع في قلبه وحوْل عينيه إلى دنيا الإيمان، فشعر بقلبه يرقّ ويدقّ أبوابَ الرّقي، وبنفسه تسمو فمدّ لها يديْه فأخذته معه، وهطل ماءُ عينيه غزيرًا.

بعد مدّة، هزّته يدُ الخادم الذي أقبل عليه مصافحًا بحرارة، فانتبه عودة أنّ المسجد قد خلا إلّا منه ومنَ الإمام الذي اتّخذ ركنًا قصيًّا يصلّي فيه، فقام هو أيضًا فختمَ يومه بركعاتٍ خفيفة سريعة أدّاها بخشوع، ثمّ أقبل إلى الإمام فصافحه بابتسامةٍ هادئة، تأبّط بعدها عودة ذراعه خارجين من المسجد.

ألقى القمرُ نسيجَه الفضيّ البرّاق عليهما، فبَدَوا ككوكبٍ درّي يوقدُ من ضوءٍ فيّاض أبيض رائق، يحسبهما مَن يراهما من بعيد كقنديلٍ واحدٍ سرج في نهر الطريق يضيء للحيارى طريقهم.

ضمّ الإمامُ ذراعَ عودة إلى إبطه كأنّه يحضنها، ويقول مِن ثغرٍ بسّام:

- النّاس تُهْرع إليك مصافحة وأنتَ تأتني مصافحًا!

زادتِ ابتسامةُ عودة وجهَه ضياءً:

- أنت عالمُنا، وتعلم الحقيقة عارية.

- هذا لا يمنع أنّك إنسان صالح.

- لا أشعر بنفسي كذلك.

- وهذا مِن صلاحك.

- لكن.. لماذا أرى رؤيا مفزعة؟

- الرّؤيا لا تزعج، ما هي إلّا كوابيس يلقيها الشّيطان في طريقكَ حسدًا منه، فلا تلقي لها بالًا.

- لكنّها تتكرّر.

- ذلك مِن تمحيص الله لك فيزيدُك قربًا.

حبسَ عودة الصمتَ خلف شفتيه المطْبَقتين، وراحت أنفاسه تتردّد في هدوء بصوتٍ خفيض، وبين الفينة وأختها يرمي ببصره على ترابِ الطّريق الذي تثيره قدماه الكبيرتان، فيتصاعد حتّى كعبيه، كأنّه دخانٌ تثيره الحواديت الأسطورية، حتّى قطعه صوتُ الإمام:

- كيف أنت في عملك الجديد؟

انتبهَ لسؤاله فذكّره بشيء عكّر صفحة وجهه، وأيقظ الحزن في قلبِه، فأجاب مستنكرًا:

- لا أعرف كيف وافقتُك؟

- لأنّك صالح.

- ما في هذا العمل من صلاح؟

- إنْ لم يكن لكَ فللنّاس، وهذا ما تبغيه وأبغيه.

- يا ابن حنبل، ما أبغيه هو أنْ أخرجَ من هذه الدنيا، لا لي ولا عليّ.

- فما بالك لو زاد أنْ يكون لك من الله بحُسن فعْلِكَ القَبول؟!

- بأنْ أكون فردًا في الشّرطة، ثمّ قائدَهم في هذه المنطقة!!

وهنا قاطعه ابن حنبل:

- هذا هو حُسن العمل، اسمعْ يا عودة.. لو أنّ كلّ فردٍ صالح جيّد يُحْسن التصرّف يتركُ عملَ السّلطان وأعوانه؛ فلنْ يبقى للناس إلّا السّيئون وعبّاد المادّة وخبيثو النّفوس يتولّون تلك المناصب فيقعُ الشرّ على الناس.

ردّ عودة مستنكرًا:

- مَن قال إنّي صالح؟!

- سيرتُك.. مِن أوّل يومٍ حملت فيه سيفًا، وشدّ خصرك وكتفَك لباسُ الجديّة، بل قبل ذلك، منذ أنْ وطِئت قدماك ترابَ المحروسة، وعرفناك معلّمًا للصّبيان ومحفّظًا للقرآن.

صمتَ قليلًا ابنُ حنبل وهو ينظرُ حولَه فيما لاحَ أمامه البيوت، التي راحَ ضوء المصابيح ينفذ من خصاصِها في محاولةٍ يائسة لتبديد الظّلام، وقد سكنَها شاغروها، فأكمل:

- ألا تسمع لمديح النّاس لك، وشكرِهم لفعْلك معهم كلّ وقت! انظر...

ثمّ رمى ببصرِه إلى حيث يتّجهون، وهو يكمل:

- مَن بنى لك هذا البيتَ كهيئته الجميلة تلك، وفي أقصر وقت؟!

رفعَ عودة بصرَه إلى حيث أشار ابن حنبل، فبدا بيتٌ كبير من طابقيْن، يقف شامخًا في بهاءٍ وجَمال:

- هذا مِن أعجب ما رأيت، لم يتقاضَى حرفيّ واحدٌ من البنّائين والنّجارين وغيرهما أيّ أجرٍ، حتّى أصحاب موادّ البناء لم يتقاضَوْا ثمنًا لبضاعتهم.

قاطعَه ابن حنبل:

- بل الأعجبُ يا عودة أنّهم كانوا في غاية السّعادة، وكلّهم فرح وسرور كأنّهم في عيدٍ أو عرس، كلّ هذا وتتساءل لماذا؟! لأنّهم أحبّوك ووثقوا فيك ووجَدوك نجدتَهم وحاميَهم بحقّ.

توقّف ابن حنبل عن السّير، فوقف بدوْره عودة بجواره، ثمّ قال ابن حنبل وهو يضحك:

- وبما أنّنا نتحدّث عن الأعاجيب، فالأعجبُ من كلّ ذلك أنْ يفعلوا كلّ هذا مع رجلِ شرطة، وأنتَ تعرف مدى كُره النّاس لأرباب هذه الوظائف!!

بادلَه عودة الضّحك، ثمّ أكملا المسيرَ، وعودة يتمتمُ بشيء لم يسمعْه ابنُ حنبل.

- أتمنّى أن أظلّ كذلك.

عندما وصلا إلى البيت، كان سحنون يجلس أمام بابِ البيت على مصطبةٍ بجوار الباب، وأمامَه راكيةُ نار يتطاول ويقصرُ لسانها، فتكاد تحرقُ يدَه المُمْسكة بقضيبٍ يقلّب به أكوازَ الذّرة التي راح يشويها على النّار، وعندما رآهُما أقبلَ عليهما مرحّبًا، يوسع لهما مجلسًا بجواره على المصْطبة.

- يا هلا، ما هذا النّور.. وهذا السّعد! مولانا ابنُ حنبل عندنا!

- بل ما هذه النّار التي تصطلي.

- لقد هفّتني نفسي إلى بعض ثمار الذّرة المشويّ من جارنا صاحبِ الزّرع فأعطانيها.

- رائحتُها شهيّة.

- تفضّلا.

ثمّ نكتَ سحنون القضيبَ الذي بيده في النار المشتعلة فحرّك جمراتِها، وقلّب نارَها، ثمّ حرّك كوز الذّرة حركةً دائريّة جعلت أسفله أعْلاه، ثمّ صبرَ عليه قليلًا حتّى شعر أنّه قد نال حظّه من النار فحرّكه مرّة أخرى، فجعل أحدَ جانبيه إلى الأسفل، وصبرَ عليه أيضًا حتى نال حظّه من النار فحرّكه مرّة أخرى فجعل عاليَه سافلَه، وهكذا، وقتٌ ليس بالكثير، حتّى إذا رضي عنه أخرجَه من النار، ثمّ جس بعض حبّاته، وعندما اطمأنّ إلى نضجها قام بقسمه نصفيْن أعطى نصفًا لعودة والنّصف الآخر للشّيخ ابن حنبل، فتناولاه شاكرين، وأخَذا يقْضمانه في نهَمٍ وهّما يجاورانه الجلوسَ على المصطبة الطّينية، وراح عودة يقضم حبّاته النّضجة السّاخنة، ثمّ يلوكُها في بطء وهو يشاهدُ ما حوْلَه فأناخت الرّاحة إمارتها على وجهه، وحلّ بقسماته الهدوء، وأخذ يأكل ببطءٍ وشهيّة مفتوحة كأنّه يتلذّذ بما يشاهده وليس ما يأكله.

- هل تعرف أنّ هذا المكان كان قفرًا موحِشًا من قبل؟!

نظرَ ابنُ حنبل حوله، فلم يطالع إلّا ظلامًا يكاد يبتلعُ بظلمته المقطّم الرّابض عن بُعدٍ رغم ضخامته، لوْلا سطوة القمر في تمامه ينشر سلطانَه، فأظهره كشبحٍ عملاق يريد أن ينقضّ على الجالسين. حدجه ابنُ حنبل بنظرةِ لا مبالاة قبل أن يلتفتَ نحْو عودة ويقول:

- وهو مازال كذلك؟!

- ألم تلحظْ تلك المباني المعدودة التي راحت تبنَى بالجوار؟

نظرَ مرّة أخرى ابنُ حنبل حولَه، ثمّ أجاب بهزّة من رأسه، مع زومة من شفتيه، فأكمل عودة:

- تلك لم تكنْ موجودة من قبل.

- إنّهم يأنسون بجوار رجل صالح.

صمتَ عودة مرغمًا، وأكمل صاحبُه الحديث بعدَ أنْ نظر إلى بيتِه متأمّلًا:

- بيتُك حَسنٌ يا عودة.

فيتمتمُ عودة بالحمدِ والشّكر لله، ويأتي صوتُ سحنون مقاطعًا:

- هذا بيتي يا ابنَ حنبل، أما بيتُه هو فبابُه من الناحية الأخرى، كما رسم مولانا عودة.

التفتَ عودة إلى سحنون، وعلى وجهه ينطقُ التّساؤل، ولسانه يلقيه:

- ما مولانا هذه يا سحنون؟

- نعمْ مولانا، فأنت صاحبُ كرامات؛ فقد أحياك اللهُ بعد المماتِ، ثمّ إنّك

صاحب الشّرطة، والمقدَّم في المنطقة هنا، ومالكَ زمامها؛ فأنت مولانا وسيّدنا.

تسرّبت الغبطةُ لنفْسِ عودة فتلمعُ في عينيه الفرحة، وتمتلئ نفسه عجبًا، ويكاد شبحُ ابتسامة تظهرُ على شفتيه، لكنّه يصرفُها بسرعة، باستقراض أمارات الغضب يرسمها على وجهه.

لم يلحظِ ابنُ حنبل شيئًا ممّا سبق، وراح يلطّف من الأمر بأنّ سحنون ما هو إلّا مازحٌ، ولا يقصد عينَ الأمر، ومَن هُم مثل سحنون لا يؤخَذ كلامُهم على محمل الجدّ دائمًا، ثمّ قام مستأذنًا في الذّهاب فيعرض سحنون عليه نصيبًا آخر من الدّرة المشوي، لكنّه يشكره وينصرف على أنْ يلتقوا بصلاة الفجر، فقام عودة مصافحًا، فينظر إليه ابنُ حنبل مبتسمًا، ويشدّ على يده، ثمّ يتركه وينصرفُ فيتابعه عودة بناظريه حتى يلفّه الظّلام، فيختفي ويظهر أمامَه المقطم فتظهرُ على ثغر عودة ابتسامةٌ رغمًا عنه، ثمّ يتمتمُ موجّهًا حديثه إليه:

- ستظلّ أنت الصديقَ الباقي دائمًا.

***

(١٥)
الحَرَمْلك

في جنةٍ كأنّها الجنة، يخطو الشّيخ عتمان على أرضها وهو مُعجَب بصفوفِ النّخيل الباسقة في العلوّ، المتراصة على مدخلها وحوْلَ بنايتها، المحمّلة بثمرها النّاضج، المتلوّنة بالأحمر والأصفر والأسود، تشْتهيها الأنفسُ، ثمّ تلك الأشجار المثمرة بشتّى النّمر الناضجة المختلفة في أنواعها بثمارٍ في فصولٍ شتّى، تجمّعت كلّها في مكان واحد في فصلٍ واحد؛ فرغبتْ نفسُه أن يقطف ممّا لذّ وطاب، لكنّه تحاشى غضبةَ صاحب الجنّة، وتراجعت نفسُه أكثرَ عندما شاهد- وسطَ أحواض الزّهر والورد- زهرةً بشريّة ناضجة، مشدودةً حول شجرة لا تقلّ عنها نضجًا، حتّى ظنّ أنّها شجرة حسان قد أثمرتْ لولا رؤيته القيدَ في يديْها وقدميْها، وقد سقط رداؤها عن ظهرٍ زهريّ اللّون، أسدل عليه شعرٌ طويلٌ أسود، وما بانَ منه قد تخضّب بياضُه النّاصع بدماء شديدة الاحمرار تسيلُ من آثار سياطٍ قاسية مزّقت ذلك اللّحم فاحتقنَ وبكى بدمائه عليه، فتحوّل لونُه الأبيض إلى اللّون الزّهري، فاقشعرّ قلبُه وانقبضَ رغمَ اشتهائه لها على حالتها تلك.

ما كاد يمرّ بالجارية حتّى عاودته نفسُه الشّغوفة المنبهرة ببهاء القصر، الذي بدا أمامه بروعةِ مبانيه وجَماله فأدخلَ السّرور إلى نفسه، وطابت وهدأت، وغابت صورةُ الجارية عنه لحينٍ، فتشجّع أن يتمّ ما جاءَ من أجله في أحْسَن صورة.

وبعد أنِ ارتقى درجَ السّلّم الموصّل إلى الباب، وأضحى في مكانٍ عالٍ، أراد أن يمتّع ناظريه بمشهد الجنّة من علٍ؛ فالتفت إلى الحديقة ينهلُ من بهاءِ منظرِها الذي زاد في عينيْه وهو يشاهدها من مكانِه العالي، وشعر بجمالها يزداد، ولم يعكّر متعتَه سوى منظر تلك الجارية المقيّدة بالشجرة، وثلاثةُ نفرٍ ملثّمين يسيرون بحذاء السور، ثمّ ينسلّون من بابه في خفّةٍ وسرعة.. أخذ نفسًا عميقًا كأنّه يريد أن يحوي منظرَ ورائحةَ الحديقة بصدره.

تبدّلت ألوانُ الشّراب أمامه، ما تكاد جاريةٌ تضعُ أمامه شرابًا حتّى ينهل منه في عجلةٍ من شدّة حلاوته بعد أن يتذوّقه ويلوكه في فيه كثيرًا قبل أن يبتلعه.

لاحظَ أنّ الشّراب الذي يأتيه يختلفُ عن سابقه في اللّون والرّائحة والطّعم، وتختلف معه الجاريةُ التي تحضره، لاحظ أنّ الشّراب ذا اللّون الأسود أحضرته جاريةٌ سوداء لا تقلّ حسنًا وجَمالًا عن تلك الجارية البيضاءِ التي أحضرت له شرابَه ذا اللّون الأبيض، ولا عن تلك التي أحضرتْ له الشّراب ذا اللون الأصفر، ولا عن أختها التي جاءتْ إليه بالشّراب ذي اللّون الأحمر، فتمنّى أن يظلّ طول الليل ينهل من أصناف الشّراب والجواري.

توارَى إنْتظارُه لسيّدة القصر خلفَ انتظاره للشّراب الذي تأتي به الحِسان.. وراح يشغل أوقاتِ الانتظار بتأمّل الصّور والرّسومات التي زيّنت الجدران مِن حوله، فأخذته روعتُها ودقّة تصويرها، إنّه ليكاد يقسم أنّ تلك الجارية التي تجلس على ضفّة النهر مغرقةً قدميْها في مائه وهي تمشّط شعرها الفاحمَ الطويل؛ هي هي تلك الغادةُ المخضّبة بالدّماء مشدودة الوَثاق التي مرّ عليها منذُ قليل لوْلا تقطّع لحمها، ودماؤها السّائلة فتذكّرها في ألمٍ ورغبة.

نهضَ باتّجاه الشّباك المقابل للحديقة، فطالعته الجارية في مكانها فراحَ يتأمّل حسنَها وطولَ شعْرها وجسدَها اللّدن، ويتحسّر على ما أصابَها من عذاب.

صكّ أذنيه صوتُ وضعِ الأكواب على المنضدة، فالتفت فإذا بجاريةٍ تضع له شرابًا آخر، فأشار إليها فتقدّمت إليه، ودونَ كلام أشار إلى الحديقة باتّجاه الجارية المقيّدة متسائلًا:

- ما أمرُها؟!

أجابتْ كأنّ الأمر لا يعنيها:

- أيقظتْ مولاتي من النّوم.

ففغرَ فاه رغمًا عنه، وارتسمت أماراتُ الدّهشة في وجهه، فنظر باتّجاه الجارية يطالع وجهَها علّه يكشف كذبَها، فشعرت الجارية تشكّكَه في كلامها فنظرت خلفَها بترقّب، ثمّ قالت بصوتٍ خفيض:

- لقد كانت مولاتي في حلمٍ جميل وعندما أيقظتْها إحسان، قطعتْ حلمَها؛ فاستشاطت غضبًا.

انسحبتِ الجارية بعد أنْ أسرّت إليه بأمر الجارية، وتركته يتأمّل الجارية بالحديقة بعضَ الوقت، ثمّ عادَ إلى مكانه يحتسي ما وضعته من شرابٍ جديد.

لم يشعرْ بطول وقتِ الانتظار حتّى تنبّه لقدوم سيدة القصر التي أخذتْ ترفلُ في زينة العروس بردائها الطّويل ذي اللّون الأبيض الزّاهي، ولم يعرفْ أجَمالُه في سطوةِ لونِه، أمْ في خيوط الذّهب التي تشكّلت رسوماتٍ شتّى، أم في تفصيلتِه، أم في طولِه الذي يلامسُ الأرضَ!! وتضعُ على كتفيها رداءً آخرَ طويلًا، يجرجر خلفها على الأرض وكأنّها تداري به ما كشف الفستانُ من صدرٍ وظهرٍ عاريَيْن، أم تداري به أثرَ خطواتها على الأرض!! ثمّ وضعت على رأسها حجابًا شفّافًا يداري- على استحياء- نصفَ شعْرها من الخلف، والذي لم يُرَ أثرُ النّهار فيه بعْد.

انتشلَه من تأمّله صوتُها الذي كان يعرفه جيدًا، لكنّه اليوم أكثر ليونةً رغم أنّه اشتمّ فيه قسوةً لا يعرف لماذا؟! وهي ترحّب به، فتقدّمَ خطوةً إلى الأمام بعد أن كان قد نهضَ عندما رآها، وبانحناءةٍ خفيفة من ظهرِه حيّاها، ورغم رفعِه رأسَه لكنّه كان يغضّ الطّرف، وبحفاوةٍ مصطنعة رحّبت به، وسمحت له

بالجلوس، فاستجابَ لها بعد أن جلست هي على كرسيّها المخصّص لها، فزالَ عجبُه الذي زاوله عندما وجّهته الجارية- التي أدخلته الحجرة- إلى أيّ كرسيّ آخر غير كرسيّها الذي كان يختلف- بلا شكّ- عن باقي الكراسي؛ بحجمه الكبير وفخامته وفرشِه الوثير.

أخذَ الشّيخ عتمان يثني عليها ويمدحُها، ويعدّ مآثرها وإحسانها وإنعامها عليه وعلى الرّعية، ثمّ انحنى مادحًا في ذوقها وحُسنِ اختيارها لكلّ شيء مِن حولها الذي يرفلُ جميعُه بالنّعمة والفخامة، ويزهو بالجَمال، ولم تزدْ عن ابتسامةِ زهوٍ وعُجْب، وهمهمات قليلة، لم يكنْ يسمعُها أو يعرفها، لكنّه فهمَها شكرٌ له.

تحرّكت في جلستها بحركةٍ بسيطة سمحتْ لها أن تضعَ إحدى ساقيْها فوق الأخرى في ليونةٍ وسهولة، ولم يمنعْها جسدُها الممتلئ عن ذلك، وهي تقول:

- طالتْ غربتُك يا شيخ عتمان، حتّى ظننّا أنّك نسيتنا!

ردّ الشّيخ عتمان بسرعةٍ وقد ارتدى مسوحَ الكهّان:

- ليس أنتم مَن تُنْسونَ يا مؤلاتي؛ فأنا ربيبُ إحسانكم ورضاكم.

قالت ونبراتُ صوتِها تكذّب حروفَها:

- لا تقلْ ذلك يا شيخ عتمان، فأنتَ عالمُنا وشيخنا.

- مولاتي كثيرًا تغمرني بإحسانها.

- وكيف حال زوجِك يا شيخ عتمان؟

- الحمدُ لله يا مولاتي، تقبّل أياديكم الوضّاءة، وترسل لكم التحية هي والأولاد.

- لا أقصدُ أمّ أولادك.

لجمَه الصّمت هنيهةً، ولم يحرْ جوابًا، لكنّه تمالك لجامَ نفسه، وقال بتجاهل:

- ومَن غيرها يا مولاتي تقصدين؟

صخبتْ ضحكتها هنيهة، ثمّ قالت:

- مَن ابْتنيت لها دارًا جديدة.

راحتْ تشاهد تضاربَ الألوان على وجهه بتلذّذ قبل أن تشير إلى إحدى الجواري التي جاءت مسرعةً وخلفها جاريتان تحملان صندوقًا بين أيديهنّ فقدّمته إلى الشيخ عتمان، فنظر إليه منبهرًا، ثمّ نظر إلى سيّدة القصر مستفسرًا، والتي لم تطِل الأمر عليه؛ فأعلمتْه أنّه هدية زواجه، فتخضّب وجهه مرّة أخرى بألوانِ الفرح، وتمتمَ يشكرُها، ويزيد في الثّناء عليها، فأجابته وعلى وجهها بشائرُ ظفر:

- لا شكرَ يا شيخُ عتمان؛ فمقامك كبير لدينا.

ثمّ قامت واقفةً فتبعها الشيخ عتمان وقوفًا، ولحظُ عينيه يرمق الصّندوق بفضولٍ وفرح.. تحرّكت بضعَ خطوات حتّى صارت خلف كرسيّه فاضطرّ هو أن يتركَ النّظر إلى الصّندوق ويلفّ بجسده قليلًا حتّى صار مواجهًا لها بجانبه الأيمن وهو محنيّ الرأس، فوضعت يدها على أعلى مسندِ كرسيّه وهي تقول:

- من حقّك يا شيخ عتمان أن تنهلَ من ملذّات الدنيا، فما خلقت إلّا لذلك، وكلّ الحقّ لك أن تتزوّج كما تشاء، فمكانتك توجب لك ذلك، ثمّ إنّ زوجك الأولى لا تعطيك ما تريدُه، وليس لها حقّ في أن تعترضَ فليس لها فضلٌ عليك.

صمتتْ هنيهة، ثمّ تحرّكت وهي تكمل:

- فأنتَ مَن صنعت نفسك وصنعتها معك، ثمّ نقلتها من حياة الدنيا التي كانت تحياها إلى حياة القصور والنّعيم، بل وسدّة الحُكم، وراحت تتعرف وتتقرّب من الأمراء والتّجار والسّلاطين، وأضحت حياتُها رخاءً ودعة ونعيمًا، فلم تقدّم لك شيئًا، لو أنّها ساعدتك أن تصلَ إلى مكانتك لقلنا لها الحقّ في أن لا تتزوّج عليها، أو أنها صنعتْك فليس لك حقّ في أن تفكّر في غيرها، أليس كذلك يا شيخ عتمان!!؟

كانت تتكلّم وصوتُها يتلوّن بنبرات مختلفةٍ بين اللين والتقرير والشّماتة والوعيد، كلٌّ على حسب ما تنطق به، فشعر أنّ الكلام ليس له بل هي رسالةٌ لا بدّ له أن يعلمها جيدًا حتّى يوصلها إلى صاحبها، وكان لزامًا عليه أن يجيبَها إمّا أنْ يوافق على ما تقول فينالُ حظْوتَها ورضاها أو يعارضها ويوصّل لها رغبةَ سيّده في الزّواج عليها، وحقّه في ذلك، فهو في الأولى سينال رضاها وقد ينال غضبَ زوْجها سرحال، وفي الثّانية- إن عارضها- فسينالُ غضبها وقد لا ينال رضا السّلطان، وما رآه منذ دخل إلى حرملك سلطانِها يتأكّد أنّها ذات سلطان قاسٍ وسطوة لا تردّ؛ بل شعرَ أنّ نفوذها يتخطّى أسوار القصر.

رفع رأسَه، واختطف نظرةً من وجهها، وتعمّد التقاء عينيه بعينها حتّى يعلمَها بفهمه لرسالتها، وبإقراره عليها، ثمّ أرخى جفنيْه على عينيه وهو يجيبها:

- الحقّ كلّ الحقّ يا مولاتي فيما تقولين، ولا يستوي ذو فضلٍ وأيادٍ ومَن لا فضل له!!

صمتَ واختطف نظرةً من عينيها المصوّبتين نحوه في ثبات، وأكمل بعد أن غضّ الطّرف:

- وعلى الجميع أن يعمل بنصيحتِك يا مولاتي، فهي الحقّ.

أشرق وجهُها الذي تبدّت فيه شراستُه، فأكمل:

- يا مولاتي، لو عدمتِ الأمّة علماءها؛ فأنت تكفيهم لما يحتاجون إليه من فقه.

تراختْ عضلاتُ وجهِها المشدودة بابتسامةٍ زاهية:
- بل بارك الله فيك من عالمٍ فقيه.
صمتتْ هنيهةً قبل أن تكمل بنبراتٍ ذاتِ معنى لم يخْفَ عليه:
- وعاقل.

***

(١٦)
اغتصابُ اللّيل

أسدلَ الليلُ ستائره على الكونِ فغاب خلفَها كلّ شعاعٍ من ضياء حتّى القمر لم يستطعْ أن ينفذ منها فانسحب يتوارى خلفَ عتمته.

كان السّوقُ يغطّ في ظلامٍ حالك بعد أنْ طافت يدٌ على مشاعله المصفوفة على جانبي الطّريق فخنقتْ ضياءه، ورغم السّواد الحالك الذي غطّه فلا يكاد يرى أحدٌ صاحبَه الذي يمشي بجواره، لكنّهم أبدًا لم يتعثّروا في طريقهم؛ كأن لأرجلِهم أعينٌ، أو أنّ عيونهم ترى في الظّلام.

في هذه السّاعة من الليل، وقبل أن يشقّ سوادَه خيطُ الفجر الأبيض توجّه زعيم الملثّمين، ومِن خلفه أتباعُه نحْو باب الوكالة، فزرع قضيبَ حديدٍ طويلًا ذا طرف مبطّط خلف القفل، ثمّ جذبه عدّة مرّات حتّى تلخلختْ مساميرُ القفل التي تثبته بالباب، وأوشكت على الخلع فتعلّق بها، وجعل ثقلَ جسده على طرف القضيب فلم تصمدِ المسامير أمامه؛ فانْهارت وانخلعت مُصدرةً صريخًا مكتومًا رغم حرص الزعيم أنْ لا يصدر صوتًا.

لكن أنّات القفل صدرتْ رغمًا عن الجميع كأنّها معتذرة لفشله في الصّمود أكثرَ أمام معاولهم، فخرجت خجولةً واهنة.

جذبتْ ضلفتي الباب إلى الخارج، ففُتحت على مصراعيها وهي تصدرُ صريرًا خافتًا مشيعًا انْتهاكَ أمنها واغتصابَ أمانها إلى مثواها.

تخطّفت الأيدي ما وضعَ فوق الأرفف، أو في الصّناديق، أو المخزن في آخر الوكالة، حتّى انتهبت عنْ آخرها في وقتٍ قليل، وتركوها وما بها طرف خيط، ثمّ انسلّوا كما جاءوا يبتلعهم الظّلام حتى غشيَهم كنفُ المقطم، فخالطهم الأمان، وشاعت فيهم الطّمأنينة وشعروا أنّهم بمأمنٍ عن كلّ العيون إلّا عينين لم يلحظوها، تعوّدت على السّهر بكنفِ الجبل، فراحت تراقبهم وتتابعهم من بعيد.

***

(١٧)
الرّسالة

مضى على انصرافِ محمود وقتٌ طويل، لكنّها لم تنفكّ علياء قابعةً بحجرتها تعيدُ قراءة الرّسالة التي بعثها *حسن* مع أخيه بعد أن أبلغته بردّها، تعرف محتواها؛ بل تكاد تحفظُها لكنّها تحبّ أن تقرأها وتتلمّس وقعَ أنامله على الرّسالة، وتتشمّم مدادها الذي يحمل عبقَه، تقرؤها بصوتٍ مرتفع كأنّه يحدّثها.

*ابنة العمّ الغالية، سلامٌ عليك من الفؤاد الذي تسكنينه، فيظلّ عامرًا مستيقظًا على أمَلِ رؤياك..

لا تتعجّبي من سلامي هذا؛ بل أقول لك إنّ الأعجب أنّي أجمح فوْرةَ مشاعري التي كلّما خطرتِ لي يلوح طيفك أمام ناظري فترقّ مشاعري وتفيض عذوبةً، ولا أستطيع لها ردًّا، وأعلم أيضًا أنّك تتعجّبين من رسالتي تلك، وأصارحك أنّ الأعجب أنّي تأخّرت فيها كثيرًا، فإنّ مشاعري الرّاقية نحوك نبتتْ منذ نعومة أظفارنا، منذ كنا نلعب معًا في فناء بيت جدّنا الكبير.. منذُ كنتِ تجرين أمامي فتتعثّرين وتسقطينَ على الأرض، فيسقطُ معك قلبي، وأنا أرسله نحوك ليُنْهِضك..

منذُ كنتُ أراك في كُتّاب مسجدنا الكبير، وأتابعك وأنتِ تتلقّين العلم، وتحفظين آياتِ الرّحمن، حتّى شببتِ وبلغتِ مبلغ الصّبا، وصرتُ لا أراكِ كثيرًا فأتحجّج الحجج حتّى أذهب إلى البيت الكبير بعد أنْ شراه أبوك، وأصبح خاصًّا بكم، فأراك في أحد جوانبه، فيكون يوم سعْدي.

كنت أراك كلّ يوم تكبرين أمامي، ثمّ بدأت رؤياك تقلّ ففطنت أنّك يومًا ما ستُحْجَبين عنّي؛ فهلع قلبي وارتعب، وقرّرت أن أصنع شيئًا ليقرّبني منك، ولاح لي السّفر، حبل الوصال بيني وبينك، فتمسّكت به وغنمتُ في أسفاري الكثير، وعزمت على العودة إليك، فقابلتني حملاتُ الصّليبيّين على الشّام، فلزَمَ عليّ الجهاد حتى نردّهم، والحمدُ لله شارفنا على ردّهم وكسْرهم، وعمّا قريبٍ سأكون عندك لكي نكون معًا طول العمر..

فإنْ وافقتِ- وهذا بغيةُ أملي- فقد أرسلتُ رسالة أخرى مع رسالتك تلك إلى أخي محمود سيعطيها لعمّي العزيز، وإن لم أرْقَ لقبولك- وهذا مهلك حياتي- فلنْ يعطيها له، وأظلّ مكاني بأرض الشام، ويفعل الله بي ما يشاء.

قرّبت الرّسالة منها تتشمّمها مرّة وتقبّلها أخرى، ثمّ احتضنتْها بين جوانحها، وجعلتها بين صدرها وملابسِها وهي تقول كأنّها تتخيّله واقفًا أمامها: بل مبلَغُ أمنيتي أن تكون لي زوجًا كما كنتَ لي أخًا، ومازلت لي حبيبًا.. لو تعرف مبلغَ شوقي لك ما كنت ابتعدتَ عنّي، ولا اتّخذت ذلك القرارَ الصّعب عليّ قبل أن يكون عليك.. وطويتَ قِلبي على حبّي ولوعته، وبتّ أنتظرك وأعدّ الأيّام، وأنا

أتحجّج بالحجج لرفض أيّ خاطبٍ يطرق بابي؛ فهو لن يجدَ بابَ قلبي مفتوحًا؛ فقد أغلق عليك وحدَك، وبتّ أعدّ الليالي الطوال، وأسهر مع نجومها التي تهدي الحيارى في السّفر لعلّها تهديك إلى وطنك فأبثّها ما يجيش في صدري وأستودعها رسالتي إليك علّها توصلها لك حتى تتعجّل القدوم.. ولكن يظهر أنّ النّجوم لا عمل لها إلّا إهداء المسافر إلى الطريق، لا بثّ رسائل العشّاق.. وأنا أتعجّب أنّك لم تشعرْ يومًا بحبّي لك.. أمَا شعرتَها في تعمّدي التعثّر أمامك حتّى أشعر بخوفك عليّ؟! أو تصنّع الحزن أوقاتًا حتّى تسألني ما لك؟ فلا أجيب عليك حتّى تلحّ عليّ بالسّؤال.. وكلماتُك يحملها الشّوق، وأنا أحبّ أنْ أسمعك تُلحّ عليّ بالسّؤال للاطمئنان حتّى أشفق عليك؛ فأجيبك من بين كلمات سعيدة فرحة باهتمامك أنّي بخير، ومرّات ومرّات.. هل تذكرُ يومَ أثرتُ غيرتك بخاطبٍ وهميّ أخبرتك عنه حتّى أرى بريقَ الشّوق الذي أحبّ أن أراه يتقاذفُ في عينيك، فتركتني مغضبًا، ندمتُ على تلك الفعلة، وهممْتُ أن أنطلقَ خلفك أخبرك أنّي أكذب عليك، فلم تلبثْ أمّك إلّا وأراها مقدمة علينا مهرولةً تطلب لقاءَ أمّي، ثمّ علمت أنّهما تواعدا على خطبتنا.. كنتُ أريدك هكذا كما أنت، لكنّك قرّرت وحدَك أن تخوض غمار الحياة وتشقّ عُباب البحر، حتّى تأتي بما تراه مناسبًا لي مكافئًا للحياة التي أحْياها، ولو تعرف لعرفتَ أنّي لا أريد إلّا أنت.

تنهّدت بعمق، تُخرج كلّ الذكريات من صدرِها، وتبتسم ثمّ تهمهم:

- أنتظرُك يا بنَ العمّ.. أنتظرُك يا حبيبي، فلا تتأخّر عليّ.

***

(١٨)
فرْسانُ الصّحراء

هبّت عليه زوبعةٌ حارّة محمّلة بذرّات الرّمال السّاخنه فصدمت وجهَه كأنّها سهام محمومةٌ لوْلا أن اتّقاها بلثامِه فلم تصل إليه، ولم تُعرقلِ انطلاقَه فوق صهوةِ جواده الأشْهب يشقّ الصّحراء عائدًا من رحلة الصيد التي يقوم بها آخر كلّ شهر عربي، لحبّه رؤية ميلاد الشّهر كلّ مرّة، فتتيح له خلوتُه بالصّحراء رؤيتَه والتمتّعَ بلحظات ميلاده.

لم يغنَمْ كثيرًا من اللّحم الطّري في هذه الرّحلة، لكنّه غنمَ جلدَ ثعلبٍ قابله فاغتنمَ الفرصة، وصوّب سهامَه نحوه فأصابتْه بمقتل، لكنّه كان ثعلبًا قويًّا، تحاملَ وهاجمه، فاضطرّ لنزع سيفه من غمده، ودخل معه في صراعٍ مُميت، فازَ فيه في نهايته، وببعض الجروح البسيطة في صدره الذي يخاله شَعورًا بالفخر بها، وسيسير عاريَ الصّدر وسط القبيلة يتباهى بصيده وبجروحه.

بعد تخطّيه مضاربَ القبيلة للرّعى شعر أنّ هناك أمرًا ما، فقد خلا- تقريبًا- من الرّعاة، ولم يجد صديقه المقرّب له، فحاك قلبه سوءًا عن قبيلته، فشدّ لجام فرسه يهمزُه بالإسراع.

لم يشعرْ بتغيّر مشية فرسِه اختيالًا عندما توسّط بيوت القبيلة واشرأبّت أعناقُ الخيل والإبل إليهما تنظرُ فاختال في مشيته يزهو براكبه وحده دونَ منازع حاز امتياط ظهرِه لفارس القبيلة دون منازع؛ بل تعدّى صدى اسمه وسيرته حدودَ القبيلة.

كما توقّع، وجدَ أعيان قبيلته مجتمعينَ بدار الشّيخ خليفة، شيخ القبيلة، وكعادته لا يحبّ أن يتفاجأ بأي أمرٍ؛ فراح يعمل التفكير والعقل عن سببِ هذا الاجتماع.. هل يبحثون أمرَ تعدّي قبيلةٍ ما على قبيلته في غيبته؟ شعر باندفاع الدّماء الحارّة في قلبه وعقله رغم انتهاء هذا الأمر منذ أنار الله الجزيرةَ العربية بنور القرآن؛ فأعاد التفكير، أم هي غزوة صليبيّة أخرى قادمة نحوهم؟ لكنّه طرح تلك الفكرة- أيضًا- عن باله فلم يرَ في رحلة صيده أيّة علامات لهذا الأمر، بالإضافة أنّ ولي أمر البلاد سرحال عاقد معهم العهود والاتّفاقيات، وأنّه وهُمْ على وفاقٍ تامّ، فيكاد يكون هو واليهم هُم وليس واليًا عند خليفة المسلمين.

قطعَ استرساله مع أفكاره بقفزةٍ واسعة من فوق صهوة جواده لم يشعرْ لها عناء، واتّجه نحو الاجتماع بخطى واسعة، فبشّ له القوم وتهلّلت أساريرهم لمقدمِه، وقطعوا الحديثَ يستقبلون حتّى سرحان منافسه اللّدود وأباه، لانت أمارات وجهيْهما، ولم يعترهِما كدرٌ كما يحدث كلّما رآه، فألقى عليهم- في قوّة- سلامًا، فيه ودّ صادقٌ واستفسار.

- السّلام على أهلي وعشيرتي ورحمة الله وبركاته.

تجاوب القومُ في الردّ فتكرّر ردّ السّلام بينهم، وأفسحوا له الطّريق، وقام إليه شابّ في مثل عمره، لكنّه أنحف، أسمرُ اللون، يرتدي جلبابًا واحدًا، وتعتمر رأسَه عمامةٌ قليلةُ عددِ اللفات، ذو لحية قصيرة لكنّها متساوية، التزمه معانقًا بحرارةٍ وودّ صادقين، ثمّ أوسع له في المجلس بجواره، ثمّ ملك زمامَ الحديث مَن كان يجلس بصدر المجلس.. كان شيخًا عليه وقارٌ وهيبة، كبير الهيئة، عظيم الجسد، تبدو عليه علاماتُ السّنين في غير ضعف، يكسو لحيته الكبيرة بيض السنين، وتعتمرُ رأسَه الكبيرة لامةٌ كبيرة يتدخّل اللونُ الأسود والأبيض فيها، وراح يستأنف حديثًا كان قد بدأه قبل أن يقبل فارسُهم:

- فليس شرّه زاد فقط على أهل القاهرة فقط؛ بل تعدّاه حتى ضيّق علينا أرزاقنا وحياتنا.

قاطعَه صديقُ الفارس بكلماتٍ يكسوها الاحترام، لكن يغلّفها الغضبُ والاندفاع:

- هذا لأنّنا تركناه يفعلُ ما يشاء، وسكتنا على ظلمِه لأهل القاهرة، فكنّا شركاءه في الجُرم.

أجابه أبو سرحان، ندّ الفارس، باندفاعٍ وغضب:

- وما كنّا نفعل يا بنَ شافع، وهو والي أمر البلاد، ويملك الجيوش والعتاد؟

أجاب الفارسُ يزودُ عن صديقه، فخرجت كلماته كسهامٍ مشرعة في ساحة الوغى:

- هذا كلامٌ لا يقال لنا ونحن أولو بأسٍ وقوّة، والقريب والبعيد يعرفنا، فلا نهاب أحدًا، فنحنُ في العدد كالجيوش، وفرسانُنا في الوغى أسود.

قاطعهم شيخُ القبيلة بحزمٍ موجّهًا حديثَه للفارس:

- صدقتَ حمزة؛ فنحن أكبرُ القبائل في برّ مصر، لكنّنا لن نحاربَ دولتنا، بل نحن سيوفُها في وجه عدوّها وعدوّنا.

- وإنْ كان ظالمًا يا شيخُ خليفة؟

قالها عارف بحدّة انكسرت مع نظراتِ شيخ القبيلة له:

- يا عارفُ يا بني، نحن لسنا أعوانًا لظالم، ولا كنّا ظَلَمة فتبيّن موضعَ كلماتك.

- معذرةً يا شيخُ خليفة، أنا لم أقصد ذلك مطلقًا، بل نحن أحرار منذُ نعومة أظفارنا، نتوارثها كابرًا عن كابر، وجيلًا بعد جيل، ونرتعُ في بحبوحتِه تحت مظلّة حكمتك.

وأكملَ حمزة يلين الحديث:

- نحنُ يا شيخ خليفة سيوفُك أينما توجّهها تُوجَّه.

لانتْ صفحةُ وجه الشّيخ خليفة وهو يعتدلُ في جلسته، ويكمل حديثَه:

- جَمعْتكم حتّى تكونوا شركاء معي في القرار الذي اتّخذتُه.

ثمّ كسا وجهَه أماراتُ الجدّ:

- إنّ سرحال زاد ظلمُه، وطغى، وأضحى يطالبنا بما يثقل كاهلنا، ويتعدّى حدودنا، ولا يطيقه أحد، يطلب منّا أن نرسل له فرساننا كي ينضمّوا إلى جيشه يوجّههم نحو حلفائه من الرّوم كي يتّخذونهم عونًا على إخواننا من أهل الشّام، وعندما رفضنا قامَ بمنع ماء النيل وأغلقَ القنطرة التي تصلُ الماء إلينا؛ فهلكت زروعُنا، وماتت بهائمنا، وضيّق علينا الحياة، وزاد شظفُها، ونحن قومٌ لا نجبَر على أمر، هذه سيرتُنا منذ الأزل، ومَن سبقونا قالوا إنّه لا يفلّ الحديدَ سوى الحديد، ونحن حديد، ولن نفلّ؛ فلا بدّ أن يوجَعَ سرحال كما أوجعنا.

ثمّ صمتَ فطال الصّمت على الجميع، ولم يقطعه إلّا حمزة بكلماتٍ مُلتهبة التّحدّي والقوّة:

- سرْ بنا يا شيخَنا وسيّدنا إلى حيث شئت؛ فنحنُ طوْع بنانك.

ثمّ أكمل صديقُه عارف بن شافع في حماسة:

- الحقّ معك يا شيخُ خليفة، فاعلمْ أنّك منصور، وهذا ما أرسلتني أتعلّمه بالأزهر، وحقّ الله معك.

تلوّنت صفحة وجْه أبي سرحان بألوانٍ شتّى بين الأحمر والأسود بعد أن ضربها الخوفُ فبانت أمارته على وجهِه، فاندفع متحدّثًا:

- ليس هكذا تؤخَذ أمورُ الرعيّة والبلاد يا شيخ خليفة.

فحدجَه الشّيخ بنظرةٍ نارية، ورمتْه العيون بالاستنكار، فأكمل دون تمهّل:

- أقصد أنّ مصر ليست بالبلد الصّغير فتتنازع أركانها بين الرّعية، وأرى أنْ نقِي القبيلةَ والبلَد شرّ الحروب، وأن نرسل مِن طرفنا رسولًا يبحثُ الأمر مع الملك سرحال، ونطالبه بالعدول عن قطع الماء عنّا.

قال الشّيخ خليفة بحدّة متهكّمًا:

- لأنّك مشغول عن أحوال القبيلة بتجارتك التي تحْميها لك القبيلة بفرسانها وسمعتها قبلهم، فتجني الربح الوفير، بالفعل قد حدث ذلك منذ مدّة، لكنّ سرحال لم يقدّر ذلك، ومضى في غيّه؛ بل أخذَ الرسول وسجنَه لديه.

حوّل وجهه إلى بقية أعْيان القبيلة، وخصّ حمزة وصديقَه بالنظر قبل أن يقول:

-

- على مشارف الوصول إلى الطّريق القريب منّا قافلةُ تجارة لتجّار القاهرة، أعوان سرحال، وهي غنيمة عظيمة ستكون عونًا لنا على ما سلبه منّا سرحال، وضربةً قاصمة له تعلّمه مع مَن يتعامل، وأننا لا يُستهان بنا.

صمتَ، فسَادَ الصمتُ واستولى على الرؤوس، لم يقطعه إلّا صوتُ أبي سرحان موجّهًا حديثه إلى عارف متسائلًا في تحدٍّي:

- ماذا يعدّ ذلك في الشّرع يا عالمَ قبيلتنا وفقيهَها؟

فطنَ الشّيخ خليفة لسؤاله، فبادر بالردّ متحدّيًا وهو ينظر إليه:

- يعدّ دفاعًا عن أموالك وحياتك يا شيخ تجّار القبيلة.

ثمّ التفت نحو عارف، وقد غيّر نبرةَ صوته ولهجتَه، وهو يكمل حديثَه:

- أليس كذلك يا فقيهَ القبيلة؟

- هو ذاك يا كبيرنا.

رفعَ رأسَه، ومدّ عنقه، فحوى الجمعَ بناظريه، وأعلى صوتَه:

- على فرسان قبيلتنا أن يعدّوا العدّة لحفظ كرامة قبيلتهم، فالقافلة على مَشارف القبيلة، ساعات قليلة وتحوزها، فلتكونوا كلّكم سيفًا واحدًا يسطّر في الأفق والتّاريخ عودةَ هيبة وقوّة قبيلتنا من جديد، واحْذروا أنْ يُراق دمٌ أو تزهق روح.

***

(١٩)
ضرباتٌ مُتلاحقة

كان صدى اقتحامِ ونهْب متجرِ الحاجّ سعيد القمّاش يتردّد ويسري بين جنبات السّوق والتّجار في سرعة، في الحوانيت والأزقة وفي الطُّرقات، حتّى اقتحم البيوت بين الأزْواج وبين السّمار في المساء، حتّى اشتعل حريقًا بوصوله قصرَ الوالي، فهبّ سرحال واقفًا بقامته الطّويلة، ووجهه الأسمر، فزادَه الغضب سوادًا وقتامة كأنّها غيوم سوداء تجمّعت، وتوشك أن تهطلَ عذابًا.

تحرّك من فوق عرشه حيث كرسيّ حكمه، تحرّك في بطء يرفع وجهَه تارةً وينكسها أخرى، يتلفّت مرّة يمنة، وأخرى يسرة، بين هذه وتلك يزفرُ زفراتٍ حارّةً شديدة تفضح ما يصخب في صدره، ويصرخ، بعد وقتٍ يقضيه في المشي بغير هدى يعود إلى كرسي ملكه، فيجلس وهو غائبٌ عمّا حوْله، يصعد ما يصطخب في صدره فيتلاحم على صفحةِ وجهه.. تتحرّك عضلات وجهه بين العبوس والغضب والحزن والسّأم، يزفر بقوّة فيضرب مسندَ كرسيّه بقبضته، ويهبّ واقفًا يعاود الكَرّة فيمشي على غير هدًى في أركان قاعةِ عرشه، يلفّ وجهه تجاه الشّباك الغربي بقاعة الحكم، فيلقي منها نظرَه إلى حيث مساكن أهل مصر، لكنّه لا يرى إلّا بعضًا من بيوتهم؛ حيث تحجب الأسوارُ العالية أغلبها.. فيعود ناظراه خائبيْن، فيصكّهما بسقف القاعة فلا تؤثّر في نفسه زخارفُه الباهرة، ولا الألوان النّاصعة التي تزيّنه، حتى فاض به الضيق فهتفَ حانقًا:

- ملعون، وملعونٌ أبوه مَن تجرّأ وفعل تلك الفعْلة السّوداء، مَن تجرّأ وهتك سترَ مَن في حماي، هل هو تحدّي أم جهل، أيّ منهما سينالُ عذابًا لم يُسمع عنْه من قبل، أسرقةٌ في مدينة سرحال!! ومَن يسرقون؟ متجر أبو عروسه؟! أجهل بهذا؟ أم تعمّد هتك ستر؟! لأسومَنّه سوءَ العذاب .

وتميّزت أمارتُ الغضب على وجهه غيظًا، وهو يستعرُ قولًا:

- أقسمُ لينال سماهر منّي قسطًا من العذاب بتأخّره عن كشف سترِ ذلك اللّصّ وتقديمِه لي.

يخترق حدودَ صمته وحديثِه لنفسه صوتُ خطوات ثقيلة مهرولة، وحفيفُ ثوبٍ ثقيل محمّل بمختلف الأسلحة يُصَلصل حديدُها معلنًا عن نفسه، يتقدّم صوتُ الحاجب عاليًا:

- القائدُ سماهر.

يلتفتُ في حدّة وقوّة، يلقي بنظرةٍ متفحّصة على القائد المتقدّم في خطًى واسعة، ثمّ يتّجه إلى كرسيّه فيعْتليه، ثمّ يقابله وراحتاه تمسكان بمقدمةِ

مسنده، تكاد تعصرانه من فرْط غيظه..

ما كاد القائدُ يلقي السّلام على مولاه حتّى قاطعَه الأخير بسؤاله غاضبًا:

- ماذا فعلتَ في أمر سرقة متْجر الحاجّ سعيد القماش؟

التقط القائدُ نفسًا عميقًا بعد أنْ أصبح على مقربةٍ من العرش، قبل أن يقف ويهمَّ أن يتكلّم، قاطعه سرحال مرّة أخرى:

- لقد زادت إخفاقاتُك يا سماهر، وأضحيت مقصرًا في عملك، إن كنتَ لا تستطيع النهوضَ به أخبرني حتى أصرف غيرَك إليه.

نطقَ صوتُ سماهر اضطرابًا وهو يجيبه:

- مولاي، أنا لا أوفّر جهدًا في البحث، وسيكون بين يديك اليوم.

- وعودُك كثيرة هذه الأيام يا سماهر دون تنفيذ.

- مولاي، أنا...

قاطعَهما صوتُ الحاجب معلنًا قدومَ الشّيخ عتمان، دخل إلى قاعة العرش يرفلُ في ثوبه الطّويل المخمليّ المزركش بالألوان الكثيرة قابضًا عليه بيديه فلا يتعرقل به.. وعلى مقربةٍ من الوالي تركَه ورفع يديْه بالتّحية والسّلام مرّات عديدة، حتّى أصبح أمامَ الملك، فقال بأنفاس متقطّعة تتلعثم الكلمات في فيه:

- السّلام والتحية على ربَّ العطايا الزكية.

تجاهلَه سرحال وهو يقف، وبكلماتٍ حادّة اتّجه إلى قائد الشرطة:

- اذهبْ ولا تعُد إليّ إلّا والفاعلُ بين يديك.

رغمَ تماسكه إلّا أنّ رجفة خفيفة بدتْ في يديه وهو يرفعهما بالتّحية.

قبلَ انصرافه حدجَه الشّيخ عتمان من زاوية عينيه حتّى تخطّاه فتقدّم هو خطواتٍ قصيرةً، وبنظرةٍ فاحصة إلى وجْه سرحال قرأ فيه كمّ غضبه وتميّزه، فشحذَ هو همّته وجميعَ مَلكاته حتّى يرفع عن سيده وطأة الغضبِ والغيظ.. رفعَ يديْه مرّة أخرى بالتّحية، لكنْ هذه المرّة يداه أقلّ ارتفاعًا، ويكرّرها:

- السّلام والتّحية لمولانا السّلطان.. سلطان البلاد والعباد، مانحِ العطايا، وقاصف رقابِ المجرمين، وحامي حمى البلاد والعباد.

وكأنّها ترياقُ نفْسِ سرحال، فهبطت حدّة غضبه، ولانت عضلاتُ وجهه، وزالت أماراتُ الغضب عنها، فجلس هو وأشار إلى الشّيخ عتمان بالجلوس تخيّر عتمان أقربَ كرسيّ له، اتّجه إليه ووقف بمحاذاته دونَ أن يجلس، ثمّ قال:

- ما أغضبَ مولانا وسلطانَ البلاد؟! ليعلم سيدي أنّ أيّ أمر مهْما عظُم

سيصير كأنّه لم يكنْ بهمّة مولاي وحكمتِه.

رجعَ سرحال بظهره على كرسيّه، وأسنده عليه وهو يقول:

- متجر الحاجّ سعيد القماش قد نُهب عن بكْرة أبيه.

قال عتمان بدهشة:

- وما يُغضب مولاي؟!

حدجه بنظرةٍ جعلته يخفض رأسَه، وقال بحدّة:

- ماذا تقصد!!؟ أنسيتَ مَن هو لي؟!

- أليس مولاي هو مَن وراء هذا الأمر؟

ندمَ عتمان على تعجّله بقوله ذلك.

ملأ الشيخ عتمان وما حوله من قاعة العرش عيني سرحال وهي تتّقد دهشةً وغضبًا، فأكمل عتمان سريعًا:

- أقصد أنّك بذلك تعرقل سعيَه إلى الهرب.

ازدادت عينا سرحال دهشة:

- ماذا تقول؟!

- لا أقول إلّا ما يردّده التّجار في السوق، فقد شرع في بيع متْجره وبيته وأملاكه كلّها، وما يفعل ذلك أحدٌ إلّا مَن شرع في الهرب.

ثمّ صمتَ هنيهة، وملأ صوته الخنوع.. فأخفضه وهو يكمل:

- كنت أظنّ مولاي يعلم؟ لذلك بعثتَ مَن يعرقل له مسعاه.

حمدَ الله الشيخ عتمان أنّ ما يرتديه السّلطان سرحال من ملابسٍ غير قابلة للاشتعال لأضحتْ حريقًا بفعل جسدِه الذي راح ينتفض غضبًا وغيظًا يكابدُه بشقّ الأنفس، وراح يحدّث نفسه، ويسمعه عتمان:

- إنّ سماهر بات عاجزًا عن القيام بمهامّ قائد الشرطة كما ينبغي، وأمور كثيرة لا يعلم بها، أو لا يخبرني عنها!!

- لا يغضب مولاي، فما يقوم به يتمنّى كثيرون أن يقوموا به.

ثمّ صمتَ وتقدّم خطوات قليلة حتّى أصبح قريبًا من مولاه، ثمّ أكمل حديثه بصوتٍ سُمع له فحيح:

- وهناك يا مولاي مَن يستطيع القيام مقامَه أفضل منه.

ضاقتْ عينا سرحال، وجعد جبينُه متفكّرًا، والتفت مواجهًا لشيخه فأكمل

عتمان دون تمهّل:

- أتذكر يا مولاي عودة ؟

فضاقتْ عينا سرحال أكثر، وهو يصوّبهما نحو رأس عتمان يريد أن ينفذَ بهما إلى ما فيها فيقرأ ما فيها، فأكمل عتمان:

- لقد ظهر منذ عملِه بالشّرطة على خير ما يُنتظر منه، وزاد الأمن والانضباط في الحيّ على يديه؛ بل.. والعجيب أنّ الناس تحبّه.

- أو ليس متجر سعيد القماش تحت زمام حيّه؟

- وهذا ما أقصدُه، هذه هي الجريمة الوحيدة التي حدثت بالحي منذُ وقت، وبتكليفِ مولاي له بحلّ هذه السّرقة لن يتوانى في فكّ طلاسمها والقبض على مرتكبيها.

راحَ ينظرإلى عتمان بعينين ضيّقتين تسأله المشورة، فأجابَه وجهُ عتمان الذي بسطت عضلاتُه وكساها الهدوء، فأعلن صوتُ سرحال النّتيجة، وعلا مناديًا الحاجبَ آمرًا له بإحضار عودة سريعًا، فأرسل الحاجب مَن يستدعي عودة، وارتدى عتمان رداءَ الحكمة وتلفّح بعباءة الصّمت، لا يبدأ سيّده بأيّ كلام حتّى يبدؤه هو، لكنّ سيده لم يهتك أستار الصّمت، ولزم التّفكير فيما سيجدّ، وما سيكون بتولية عودة قيادة الشّرطة مكانَ سماهر، وما سيفعل بسماهر إذا بدا منه اعتراضٌ، أو ظهر له غضب، وتشاغل عتمان عن سيّده بلا شيء، مرّة ينظر لثوبه بإعجاب، وأخرى حوله بفخر، وهو يغبطُ نفسَه بحسن مشورته وسعادته لنصحِه لمولاه بتلك النّصيحة التي ارتاح لها سيّده، الذي أشار له أنْ يكمل أكلَ ما يشاء من الفاكهة كأنّه يكافئه عن مشورته، ونفد الوقت سريعًا على تلك الحالة متسرْبلًا بالصّمت الذي قطعه صوت الحاجب يطلبُ الإذن لدخول عودة الذي تقدّم في تؤدةٍ وثقة، لم يستطع أن يمنع نفسَه مشاهدة ما تحلّت به قاعة العرش من زخارفَ وأثاثٍ تزين أكثرُها بالذّهب والفضّة، ونمارق وأستار من الحرير الخالص، فدخل نفسه إعجابٌ بها وبحُسْنها ورؤْنَقها، فرتعتِ الغبطةُ في قلبه بموقفه هذا، حتّى إذا استوى أمام سرحال رفع يديْه بالتّحية والسّلام، ثمّ أوما إلى الشيخ عتمان بالسّلام، فبادره سرحال، وعلى وجهِه سكنتِ الجديّة والاهتمام:

- ماذا جدّ بأمر سرقة متجر الحاجّ سعيد بالسّوق يا عودة؟

أجابه عودة بثقةٍ، وهو ثابتُ الجنان:

- لقد حُدّد السّارقُ، ومَن معه، وأين أخفوا مسروقاتِهم.

أخذتْ سرحال الدّهشة، فتوقّف الزمن وهو ينظر إليه، وجسدُه ينتفض، تساءل ثمّ ردّد النّظر إلى الشيخ عتمان، فوجده بنفس حالتِه، فما توقّعا أن يكون عودة معلّم الصّبيان السّابقِ ورجلُ الشّرطة الحالي؛ قد توصّل للفاعل

بتلك السّرعة، فتساءل سرحال مأخوذًا:

- هل أنت متأكّد؟!

- ولديّ شاهد.

- ولماذا لم تلقِ القبضَ عليه؟

- هذا يتخطّى حدودي.

ظنّ أنّه يقصد سماهر قائدَ الشّرطة، فأجابه مؤكّدًا:

- لا عليك مِن سماهر.

- لا أقصدُه هو.

مَن يقصد غير سماهر؟ ومَن يقصد فوق سماهر؟ ومَن يكون الذي يخشاه عودة؟ ولماذا؟ هكذا تردّد السّؤال داخل صدر سرحال وشيخِه حتّى قطعه سرحال:

- ومَن غيره؟!

- لا أستطيع الكلام.

قالها فجأة، فنظر سرحال نحو الشّيخ عتمان:

- لا عليك من الشّيخ عتمان؛ فهو لنا صاحبٌ ورفيق.

- وكاتمُ سرّ.

عقّب بها الشّيخ عتمان يستحثّ عودة على الحديث، لكنّه لم يتكلم هو؛ بل جاء صوتُ سماهر جَهْوريًّا يتردّد صداه في صرامة وسخرية:

- مولاي، فلتسمح لي أنا أنْ أقدّم لك السارق.

تقدّم سماهر بخطًى متعجّلة واثقة، يضرب الأرض بقدميه بقوّة، كأنّه يعلن عن نفسِه ويثبّت أركانه:

مَن كان مكانَ عودة كان بلا شكّ ستنهشُه الغيرة والحسد، ولكن ما ارتسمَ على محيّاه كانَ غيرَ ذلك تمامًا؛ فقد انبسطت أساريره، وسكن الهدوءُ والرّاحة فيها؛ فقد شعر برفْع حملٍ ثقيل عنْ صدره كان يضايقه، وكان يخاف منْه، فعلمه عن هذه السّرقة منذ وقوعها وعلمُه بمَن قام بها ومَن خلفه، وكان يتهيّب من خلفها، لذلك لم يخاطب الملك سرحال فيها إلّا عندما أرسل له بأمْر هذه السّرقة، والفاعلُ كما يعلمه ليس لأحدٍ قبَل به، فارتاح أن تحمّلها سماهر عنه.

- لقد قبضتُ يا مولاي على رأس الأفعى ومدبّر الجريمة.

نظرَ سرحال حيث سماهر الذي أخذ جسدُه ينتفض انفعالًا بعد أن فرغَ من كلامه:

لفّت عودة الدّهشةُ والاستغراب من كلام سماهر، وضرب قلبه الفضولُ أن يرى بحقّ مَن يعلمه رأسًا مدبّرًا لتلك السّرقة، وما سيكون موقفُ سرحال، فتعلّق ناظراه به ينتظرُه عندما قال سماهر وهو ينظر حيث عودة ويغمزُ في كلامه:

- والأعجبُ يا مولاي أنْ يحمي السّارق حمى القانون!

اختلطتِ الدّهشة والتّساؤل على وجه سرحال، ولاح الغضبُ في عينيه، فقال بحدّة:

- هلمّ إلينا بما تعدُنا ولا تُفْرط في القول، فلسنا في ساحة خطابة.

ازدردَ سماهر التّوبيخ مع ريقه بغصّة أوجعتْ حلقه، فقال في خنوعٍ يشوبه الحنقُ الخفي، ويشير نحو الباب:

- ها هو المجرمُ السّارق.

ثمّ بصوت جَهْوري أكمل:

- فْلتُدْخِلُوا السّارق.

تجمّعت كلّ العيون على مدخلِ الباب، تستقبل وافدَ سماهر، وقد ملأ عيون سرحال الغضبُ والوعيد، وعيون الشيخ عتمان الفضول المشبع بالاسْتنكار، أمّا عيون عودة فكانت تنطقُ بالاستغراب.

دخلتْ عساكر سماهر يجرّون خلفهم- بحبلٍ طويل- شخصًا مقيّدًا بالأغْلال، يكاد ينكفئ من شدّة الجذب والشدّ عندما تخطّوا نصفَ قاعة العرش، هُرع إليهم سماهر فالتقطَ الحبل من بين أيديهم، ثمّ جذبه جذبًا شديدًا جعل الشّخص المقيّد يُهْرع مدفوعًا بشدّته وهو يتحاشى السّقوط أكثرَ من مرّة، حتّى غلبه فانْطرح على وجهه يرتطمُ بالأرض فدوّت صرخةٌ منه نفضتْ عودة في وقفته، وكاد يصرخُ على أثرها لوْلا أن تمالك.

اختطفَ سماهر نظرةً قاسية من وجه عودة وهو يخطو بخطوات استعراضية، ويشير نحو الشّخص الملقى على الأرض، وهو يهتف بصوتٍ جَهْوري:

- ها هو يا مولاي المجرم، الخائن، السارق..

تنازعَ عودة الحزن والغضبُ والكُرْه بعدما وقعت عيناه على الشّخص الملقى على الأرض، الذي لم يكن غيرَ سحنون صديقه ورفيقه، ولشدّة تعجّب عودة أن يكون سحنون هو اللّصَ؛ فهو شيء لم يستطعْ تصديقه، فهتف في نفسه ذاهلًا مستنكرًا:

- مستحيل!! لا يمكن!! هذا غير صحيح!!

حدجه سماهر بنظرةِ غلّ، ثمّ وجّه حديثه حيث مولاه:

- هذا يا مولاي فردٌ في عصابة كبيرة تمتهنُ السّرقة والأعمال الإجرامية.. به، ومِن خلاله سنصلُ إلى كلّ أفراد العصابة وزعيمِهم.

ردّد عودة نفسَ كلماته الذّاهلة، ولكنْ بصوتٍ أعلى، فنظر نحوه الملك سرحال، وقال مستفسرًا في حدّة:

- ماذا تقول؟

- أقول يا مولاي إنّه مستحيل أن يكون سحنون هو اللّص.

- وكيف عرفت اسمَه؟

- لأنّه يا مولاي هو مَن رأى اللّصوص وقتَ السّرقة، فتبعهم، وعرفَ مخبئهم.

نظرَ سرحال نحو سماهر بارتيابٍ، ووجّه له الحديث:

- ما معنى هذا الكلام؟

اجابه والغل ينضح في ثنايا كلامه

- لا بدّ أنْ يدّعي عودة هذا الكلام، فهو يا مولاي شريكه؛ بل هو زعيمُ تلك العصابة، وهذا يا مولاي ما كنتُ أُخْفِيه عنكم.

تخضّب وجهُ سرحال بالغضب، وبنظراتٍ تكاد يتّقد منها الشّرر، تساءل:

- كيف هذا؟

انتفضَ عودة، وشعرَ بجسده يسخن، وأوداجه تنتفخ؛ لما اعتراه من غضبٍ، وهو يصرخ نافيًا:

- هذا كذبٌ ومحضُ افتراء.

بنظراتٍ ناريّة يرسلها نحْو سماهر الذي لم يستطعْ أن يطيل النّظرَ في عينيه، فارتعشت جفونُه أكثر من مرّة، وقال عودة متحدّيًا:

- نعمْ يا مولاي، هذا كذبٌ شنيع؛ بل أستطيع أن أثبته لك، فأرسلون.. ومُدّني بسُلطانٍ منك مَكين، وسوف آتيك بالمُجرم اللّعين.

هبّ سرحال وقوفًا، وعَلا صوتُه غضبًا شديدًا، يكاد يصرخ:

- ما هذا؟! أسيركٌ هذا أم ساحة حُواة؟! فلتكشف ذلك الأمرَ الآن.

- أرْجئْنِي يا مولاي ساعةً من نهار، وأرسل معي جنودًا أشدّاء يكونون عونًا لي، ينفّذون كلّ ما آمرُهم به مهْما كان، ويكونون عيونًا لك عَلَيَّ حتّى يطمئنّ

مولاي أنّي لست بكاذب، ولا أنتوي الهرب.

اتّجه عودة من فوْره إلى سحنون، وشرع في فكّ وثاقه، فنظر سماهر نحْو مولاه، وهمّ أن يعترض، فأشار له بأنْ يصمت، فأنهضه عودة وأخذَه معه واتّجها إلى الخارج، ففغرَ سماهر فاه ذاهلًا، ولاذ بالصّمت برهةً حتّى اختفى من أمامِهما، فانفجرَ غاضبًا لم يستطعِ السّيطرة على غضبه، فبدا أهوجَ وهو يقول:

- إنّه يا مولاي كبيرُهم الذي علّمهم السّرقة، إنّ عودة هو الزّعيم.

نظرَ سرحال إلى سماهر نظراتٍ شعرَ فيها سماهر أنّه يكاد يحترق، فأحنى رأسَه وأخفض عينيه، وأرهفَ سمعه لما يقول سرحال:

- سيأتي نبأه في حينه، وليس له مهرب.

جلسَ سرحال على كرسيّه، وتحرّك عتمان حتّى وصل إلى أقربِ كرسيّ له، وجلس وعيناه تداعبان خُوانَ الفاكهة، وقد رغب أن يكملَ استمتاعه به، لكنّه أحجمَ عن ذلك، وارتمى سماهر على أقرب كرسي له، ومرّ الوقت بطيئًا، زاد الصمتُ من ثقله حتّى أقبل الحاجب عليهم، وهو يطلب الإذنَ، فأشار له سرحال بالإذنِ، فقال:

- أخبارٌ غيرُ سارة يا مولاي، لقد تعرّضت قافلة التجارة لقطاع الطريق والسرقة.

كادَ الغضب يعصفُ به لوْلا تملّكه لزمام أمره رغم اتّقاد عينيه بشررٍ كالقصر، يكاد يهلك النّاظر إليه، ثمّ تمالك نفسَه، وفلتت ابتسامةٌ ساخرة رغمًا عنه وهو يقول:

- هل اليوم هو يومُ السرقة؟

ثمّ التفتَ إلى الحاجب يكمل:

- متى؟ وأين حدث ذلك؟

- منذ الصّباح يا مولاي على حدود البلاد الشمالية.

صرّ على أسنانه في غيظٍ بادٍ وهو يتمتم:

- مازالت تلك القبيلة ترفعُ رايةَ العصيان.

وقطعَ استرساله دخولُ عودة، وخلفه أشخاص يجرّهم بحبال قد قُيّدوا بها، وحولهم عساكر أشدّاء يحوطونهم، فنظر نحوهم سرحال نظرةَ المتفحّص عندما خُيِّلَ إليه أنّه يعرفهم حتّى تأكّد له ذلك، ثمّ دخل خلفَهم عسكرٌ يحملون بعضًا ممّا سُرِق من أثواب وأقمشة، وقال عودة بظفرٍ وثقة:

- ها هُم يا مولاي اللّصوص بسرقتهم.

ثمّ ازدردَ ريقَه قبل أن يكمل:

- وإنْ أراد مولاي أن يعرف لمَن يعملون أُخبرُ مولاي.

رفعَ سرحال يدَه إشارة النّهي، فقد عرف اللّصوص فلم يكونوا غير حرسِ زوجته، لم يكنْ في حاجة أن يوضّح له الأمر، وأنّ مَن خلفه ليس غير زوجَته عزّة الملك أغا.

***

(٢٠)
اغتيال

أقبلَ المهنّئون عليه من كلّ مكان فتزاحموا عليه وهو يتصدّر المجلسَ على كرسي فخم، غاص فيه، مزيّنةٌ حوافّه برسوماتٍ محْفورة وعلى مقبضيه نحتَ وجهُ أسدٍ مجسّم، وشّح بالذّهب، حشيت مقعدتُه وظهرُه وساعداه بالرّيش في كيسٍ من الحرير، مطرّز برسومات بهيجة الألوان، بثّت في نفسه الرّاحة والاسترخاء.

أغلبُ المهنّئين من عوامّ الناس وفقراءِ الأحياء وجيران عودة، أقبلوا إليه بحبّ وودّ، يرقص الفرح بصدورهم، فظهر في بريق وجوهِهم ورنّات ضحكاتهم، يحدوهُم الأمل ويلفّهم الاطمئنان.

غلبَ على صخب المهنئين صوتٌ يعرف صاحبَه كثيرًا، كان يراه يهيمُ على وجهه في الطّرقات، يتصيّد الموائد والحفلات والتجمّعات.. يرتزقُ من قرض الشّعر، ويطارد الحسناواتِ بأبيات الغزل، فجاءه زاعقًا يردّد أبيات مدح وتهنئة، ويسجّل فيها فرحه وسعادتَه، وبشّره بتولّيه قائدًا عامًّا للشرطةَ، ويبلغه في شعره سعادة النّاس، وأملهم في استتباب الأمن على يديه.

تسلّلت كلماتُ الشّاعر وأبياته المتراقصة على موسيقى أوزانها الممتلئة حماسةً ومدحًا إلى قلب عودة ونفسه، فشعر بها تصنع فيه صنيعَ السّحرة بسحرهم، فملأتِ الغبطةُ قلبه، واصطخبت الفرحة فيه والسّرور.. شعرَ بزهوٍ وفخر، فبدا المهنّئون على كثرتهم يتضاءلون أمامَ ناظريه، وأنّه أضحى يراهم مِن كلّ مكان، فاحتواهم بناظريه بعد أنْ علا بكرسيّه فأصبحت هاماتُهم خاضعةً تكاد تلامسُ أطراف قدميه.

لم يكدْ ينتهي الشاعر من أبياته حتّى تسلّم خطيبٌ مفوّه زمامَ الكلام وأشعلَه حماسةً وإقدامًا وشجاعة، وأوقد فيه نيرانَ الطّموح والسّعي، فملأ صفحة وجهِه بشْرًا، وبرقت عيناه وشدّ عوده، وحلّق في علياء المجد سكرانًا بنشوةٍ لم يشعر بها من قبْل، تمتزج بين السعادة والفخرُ والأمل والكبر، وتوالَى الخطباءُ والشّعراء، كلّ يلقي بدلوِ تهنئته إليه.

كان بجواره سحنون كأنّه حاجبُه، وعلى بُعْد منهم انْزوى صديقه ابنُ حنبل ينبت في عينيه السّعادة والرّضا عمّا يرى.

عندما جنَّ الليل وقاربَ على الانتصاف، ارتدى زيّ قائد الشرطة الجديد، ودخل عليه خادمُه بسيفٍ قد طلب أن يصنع له على هيئة معينة لا يتذكّر أين رآها، أو مِن أين أحضرها... رأى إعجاب الصّانع به وهو يصفُه له... امتشقَه والزّهو يزيّنه.. امتطى صهوةَ فرسٍ كان يراها في حظيرة الدّواب، وكانت تُعجبه، ثمّ اصطحبَ جنودَه يعسّ بهم، والنّاسِ نيامٌ، يضبط الأمن.

جاسَ خلالَ البيوت فخالجت نفسه، والليل يلَفُّهُم بظلمة حالكة نشرَها في غياب القمر غبطةً وقوّة وسطوة، وأنّ المدينة- بما تحوي في تلك السّاعة- أضحتْ ملكه.. الوحيد القائم بأمرها.

فكان وَقْعُ حوافرِ فرسِه يطربُه كأنّها ضربات على عود شدّت أوتارُه من نياطِ قلبه فأطربَتْه وملأته بالسّعادة.. أو طبول تضربُ على صفحةِ قلبه تعلنُ تتويجه، فراح في غاية السّعادة والزّهو.

كان سكونُ المدينة يزيدُه قوّة وثقة، فما يدلّ إلّا على الخضوع له والاستسلام والرّهبة والخوفة من وقْع حوافر فرسه، وتردّد أنفاسُه فاستكانت المدينة كلُّها، واستسلمتْ للصّمت والسّكون، فلفّ المدينة كلّها، من شرقها حتى غربها، على مهَلٍ وتؤدَة، يرسل ناظريه في كلّ شارعٍ وزقاق يفتّش فيه ويرهف السّمعَ يتحسّس سكونه وصمته، فيعود إليه سمعُه وبصرُه يحمل له الخضوع والتّسليم.. ثمّ راح يجول منفردًا.

ظلّ هكذا حتّى يشرف الليل على الانْجلاء، وخيوطُ الفجر تتجمّع لتنسجَ نهارًا جديدًا وقد شارف هو على حدود الصّحراء، فكّر راجعًا حتّى يقضي صلاة الفجر كما تعوّد بمسجد حيّه.. شعر براحة وسكينة وهو يخرج من المسجد وقد زيّنتْ ثوبَ النهار خيوطُ الشمس الذهبية، فجعلَ ذلك دأبَه بعد العشاء الأخير من اللّيل يسرج فرسه، ثمّ يطوف بالمدينة حتّى أذان الفجر، لا يشاركه في شوارعها وطرقاتها أحد، حتّى صادف في إحدى الليالي جمعًا مقبلًا عليه في أحد شوارع المدينة فتكدّر لرؤيتهم، وارتسم شبحُ العبوس على وجهه.. أوقفهم فأخبروه أنّهم كانوا لدى أحدِ أصدقائهم يتسامرون حتّى جنَّ عليهم اللّيل وهُم لا يشعرون.. ورغم أنّه تركهم يمرّون، لكن ما شابَ صدرَه من كدرٍ- حينَ رؤيتهم ووجودهم في ذلك الوقت- ومن ضيق جعله يصدر قرارًا بأنْ لا يخرج أحدٌ بعد العشاء الأخير من الليل، ومَن يوجد سيعاقب عقابًا شديدًا، فالتزمت المدينة الأوامر. عادت إليه سعادته وزهْوه بأنه ملك الليل دون منازع.. وفي يوم قبض على أحدهم وقت حظره فكدّر عليه مزاجه فاشتمله الغضب، وقرّر أن يعاقبه عقابًا شديدًا حتّى لا يتجاسر أحدٌ بعده أن يشاركه لذّته، أو يقطع عليه متعتَه؛ فأمر بقطع رجليه رغم حَلِفِ ذلك الشّخص بأنه لم يخرج إلّا لأنّه قد تأخّر عند أمّه المريضة وكان يقضي لها شئونها لكنّه لم يصدّقه، وما فعل ذلك إلّا لأمرٍ مريب، فحسَمَ هو أمرَه وقطع رجليْه.. ولم تتكرّر تلك الحادثة إلّا مرتين من شخصين قرّر أن يكون العقابُ أشدّ فيهما؛ فقطعت رؤوسهما.. ولم يجدْ من أحد اعتراضًا، بل وجد منهم تأييدًا وتقوية، ووصل إليه ترديدهم أنّه لن يستتبّ الأمن إلّا بقررات قاطعة حاسمة.

وظلّ على عادته يخرج من الليل حتّى أذان الفجر يجوسُ خلال الدّيار فلم تسجّل سرقة واحدة، أو خرق للأمن في تلك المدّة؛ ففرح به سرحال كثيرًا.

وصادف ذاتَ ليلة أن سمع في وقتٍ متأخّر من الليل من خصاص شباك أحد

البيوت مداعبةً بين زوجيْن يصفُ فيها الزوج زوجته وجَمالها، فاقترب وتسمّع لهما فأشعل في نفسه تغزّلُ الزّوج بمفاتن الزّوجة وهي غادية ورائحة ومنثنية وهاجعة وجالسة ونائمة جذوةَ الإثارة في نفسِه، وقدحَ حبّ النساء بصدره، والتّشبب بهنّ؛ فحدّد البيت حتّى كان بالنهار جيء بهم جميعًا، وعندما رأى المرأة وجدَها بالفعل غايةً في الجمال والأنوثة.. ذاتَ قدّ لدِن، هيفاء، وعيون دعجاء، جميلة المحيّا، فوقعت في نفسه موقعًا حسنًا حاول مقاومتَه ومنعَه فلم يستطع، ووقعَ في هواها، وخضع له فاحتالَ على زوجها، وظلّ به حتى طلقها وعوّضه، ثمّ أبعده واختصّها لنفسه يتزوّجها بعد عِدّتها.

عاشَ أيامًا في سعادةٍ انقضت وهو يكترها آناء الليل فيجوسُ خلال الحيّ حتّى يصل إلى بيتها، فيطرق الشّباك بعصا خيزران رفيعة طويلة أصبح يحملُها في يده، فتخرج إليه سافرةَ الوجه، فينعم برؤيتها والسّمر معها قدرًا من الوقت ثمّ يمضي إلى حاله.

ولازمَه سحنون في كلّ أوقاته، فلم يكن حاجبَه فقط؛ بل كاتمَ أسراره ونديمَه حتّى في أحبّ الأوقات وهي سمره مع محبوبته، حتّى كان في ليلة وهُما آيبان من جولتهما اللّيلية تردّد الكلامُ في صدر سحنون قبل أن يبان على لسانه فقال:

- الشّيخ محمود حنفي يرسل لك السلام والتحيات.

وكأنه تذكّر غائبًا فجأة، فسرح بفكره قليلًا قبل أن يقول:

- له وَحْشة الشيخ محمود.

- هل تعلم أنّك لم ترَه منذ شهرين أو أكثر!!

- نعم أعلمُ ولكن، تعلم المشاغل.

- أرسل لك معي رسالة.

- هاتِها من فورها.

- لقد أوحشتَ مكانك بالمسجد.

سرحَ متفكّرًا قبل أن يجيب سريعًا:

- كي نملأ اماكنَ أخرى بالأمان.

ثمّ استطرد:

- أعْلِمه أنّي لم أنقطع عن الصّلاة، ولن أنقطع.

أحنى سحنون بحديثٍ آخر:

- كلّ العساكر يشكرونك على ما قدّمته لهم من زيادة في رواتبهم.

- هُم يتعبون معي، ويكدّون؛ فلا بدّ لهم من مكافأة حتى يحبّوا عملهم.

- لكنْ ألحظ أنّك تكثر من رجال الأمن!!

- لأنّ الأمن صعبٌ تحقيقُه، ويحتاج إلى رجال كثر.

هزّ سحنون رأسه موافقًا وهما ينطلقان في طريقهما ينهيان جولتهما، حتّى وصلا أطرافَ المدينة، توقّع سحنون أنهما سيكران راجعين، لكنّ عودة لم يفعل، فنادى عليه سحنون ينبّهه لكنّه لم يجدْ له آذانًا تسمع، ووجد التفكير قد أخذ بتلابيبه، فلزم هو الصّمتَ رغم أنّ دبيبَ الخوف راح ينخرُ أعصابه، ويتّخذ من قلبه سكنًا، وهو يرى أطراف المدينة تختفي خلفه، وتتبدّل بصحراء قاحلةٍ من حوله.

صمتَ سحنون على مضض، رغم أنّ الاضطراب بدأ يأخذ به، فتارةً يتلفّت حوله، وتارةً ينظر نحو عودة، وتارة يمدّ يده يربّت على ظهر فرسه؛ علّ عودة يشعر به، وعندما يفشل يعودُ فيتلفّت حوله أو يمسك بمقبض سيفِه، حتّى وجد كلّ ما حوله صحراءَ جرداء، وخيوطُ الفجر راحت تشغل نهارَ يومٍ جديد بخيوطه الرّقيقة ونسماته العذبة، فدفعه الخوف مرّة واحدة أن يصرخَ بعودة ينبّهه.. فنظر إليه عودة غاضبًا مستطلعًا ما وراءه، فقال سحنون متلعثمًا:

- هل نويت السّفر؟! أم أنّك ارتحلت إلى الصحراء؟!

وقتَها تنبّه عودة لموقفه، وأنّه ترك المدينة بمسافة.. فوكزَ جواده دونَ كلام وهو يلوي عنقه ويكرّ راجعًا.. شعرَ سحنون بدبيب الراحة يسري في بدنه، فانتظمت أنفاسه، وراح يحثّ جواده على الإسراع، ولوْلا خوفه من عودة لسبقه.

بنظرةٍ من عودة نحو السّماء عرف أنّ صلاة الفجر قد فاتتْه، فتضايق، وضايقه أكثر أنْ يدخل المدينة بعد الصّلاة فيعرف النّاس أنّه لم يصلِّ معهم فتلثّم بلامته، وحثّ خطى جواده حتّى يدخل المدينة قبل أن تسطع الشمس فيراه النّاس ويعرفون أنّه لم يصلِّ الفجر معهم.

عندما شارف على المدينة، وأخذ جريد نخيلها يظهر من بعيد، أرادَ أن يبطّئ فرسه، لكنّه تراجع عندما شعر أنّ بين التلال القريبة شيء ما يتحرّك.. انقبضَ قلبه وتحسّس مقبض سيفه، وفَرَد ظهرَه، ومدّ عينه يستطلع، وقبل أن تصل إلى أسماع سحنون تحذيراته كان قد برز من خلف التلّ خمسةُ فرسان شاهري سيوفهم، فتيقّن أنّ النيّة شرّ له، فكان لهم مبتدئًا فنزعَ سيفَه من غمده، وشَهَره، يوكز جواده وكزًا مؤلمًا جعله ينطلق أشدّ ما يكون، فأخِذ الفرسان بفعلته، وقد ظنّوا أنّه عندما يراهم سيولّي الأدبار، فيكون وقتها سهلَ المنال.

باغتهم باخترق تجمّعهم فأربكهم.. سقط أحدهم عن فرسه صريعًا بطعنةٍ

سريعة.. لم يبتعدْ عنهم كثيرًا حتّى لوى عنق فرسه بشدّة، وكرّ راجعًا إليهم قبل أن يصلوا إلى سحنون، كان هو خلفهم فزادّ ارتباكهم وطفرَ عليهم الاضطراب.. طُعنَ اثنان منهما من الخلف، وفرّ اثنان، وتحامل المطعونان على نفسيْهما، ولوَوا عنقَ جوادهما نحو الصحراء، لكنّه كان لهم بالمرصاد حتّى وصل إليهما، فطعن أحدهما في عنقه، فوقع صريعًا أمامه.. قبضَ على لجام فرسه، فكاد يقعُ من فوقه وهو يوقفه فجأة، وتركَ الآخر يغوص في الصحراء فارًّا.

وقف أمام المقتول، ودماؤه تنفر من عروقه، تحفر أخدودًا في الرّمال.. منظر الدّماء أمامه حفرَ في ذاكرته أخاديدَ تتقافز منها صور ومشاهدُ لا يعرف من أين تأتي، لكنّها كلّها مشابهة لما أمامه، دماء كثيرة تسيل أمامه، وحروب كبيرة يخوضها، ورؤوس كثيرة تطير.. كلّها مشاهد قتل ودماء، وهو الشّريك الوحيد فيها.. يشعر أنه لا يراها لأوّل مرّة، ولكنّه لا يعرف أين ومتى؟!.

أخرجه مِن تفكيره صوتُ سحنون اللّاهث المضطرب، ينادي عليه:

- هَلمَّ يا فارسَ البادية.

وأخذ سحنون يدخل المدينةَ مُختالًا يرقص فوقَ جواده بسيفه يمنةً ويسْرةً، وهو سعيد.

***

(٢١)
المدينةُ الفَاضلة

علا حظّ عودة عند الملك سرحال جدًّا، حتّى أضحى كبيرَ مساعديه ووزيرَه المستشار ورئيسَ جنده، فأطلق يدَه في البلاد يفعلُ ما يشاء، ويؤيّده في كلّ ما يخطّط، ومدّه بكلّ ما يريد لتحقيق مشاريعه الكبيرة؛ بالمال والرّجال والمهندسين والبنّائين.

كانت حادثةُ محاولة قتله هي دافعَه لإنشاء قلعةٍ كبيرة حصينة، بل مدينة محصّنة تكون مركزَ الحُكم، بها كلّ أسباب الحياة.. فستكون بها أراضٍ للزّراعة وأماكن للصّناعة بكلّ أنواعها.. ستكون مدينة جديدة محصّنة مكتفيةً بكلّ أسباب الحياة، مثل قلعة الجبل.

واجهته عدّة مشاكل لكنّه تغلّب عليها، كانت أكبرُها توفيرَ أراضٍ خصبة للزّراعة، فأشار عليه أحد المهندسين أن يوفّرها عن طريق النيل؛ يشقّ ترعةً كبيرة من النيل حتّى المدينة، تسير مسافة ليست بالصّغيرة في الصّحراء، ثمّ يترك النيل ينسابُ فيها في موسم الفيضان فيحملُ معه الطمي الخصب فيكوّن طبقةً على مساحة الأراضي المقرّر زراعتها، ثمّ يحبس النّيل عنها ويقوم بزراعتها، وبذلك وفّر الأراضي الخصبة للزّراعة ومصدر الماء الذي ستعتمدُ عليه المدينة في المعيشة.. ولكي لا يقطع أحد عليهم هذا الفرعَ الرّافد يضع عليه أبراجَ حراسة.

لم يُضيع الوقتَ، فمنذ تولّيه مهامّ رئيس الجند ووزيرِ الحرب شرعَ في البناء.

كان سرحال يسعدُ به أيّما سعادة، كلّما زار المدينة المنشأة الجديدة شعر أنّ الله أرسله له في وقته الذي يحتاج فيه لشخصٍ جديد قوي، يقف بجانبه، حتّى وجد أن مساعدته أكبرُ ممّا قامت به زوجته عزّة الملك أغا.. فلم يعترض عندما قام بالقبض على رئيس الجند السّابق سماهر وحبَسَه بأحد السّجون الجديدة التي أنشاها بالمدينة الجديدة.. وحينما سأله عن السّبب أتى له بأشخاص اعترفوا على سماهر أنّه مَن دبّر محاولة اغتياله.

أنشأها في وقتٍ قياسي، واستكثر فيها من الجندِ من شتّى الطّوائف، ولم يغلّب طائفةً على أخرى حتّى يظلّ الولاءُ له وحده، ولكي يضمن ولاءهم رفعَ رواتبَهم ومخصّصاتهم، بل وأطلق أيديهم في البلاد فكان له سوطه وسيفه.

وحينما قرّر قتلَ سماهر وتعليقَ جثته على أبواب المدينة الجديدة حتّى يكون عبرةً لهم ولغيرهم؛ أطاعوه ولم يشمّ فيهم أيّة رائحة اعتراض.

ورتّب أن يجعل زيارة سرحال للمدينة بعد إعدام سماهر وتعليقِه على بابها الذي جعله يلجُ المدينة منه، وحينما رآه سرحال معلقًا ضحكَ وقال متسائلًا:

- بماذا ستسمّي المدينة؟

قال دون تردّد:

- المدينةُ الفاضلة.

***

(٢٢)
الزّيارة

راقَ له الجوّ بعد أن صفا وتخلّى عن حرارته التي كان يحبسها من منتصف النهار حتّى ثلث الليل الأخير، حتى أفرج عنها فهبّت نسائم الهواء تطوف في المدينة فتلطّف الجو.. هبّت عليه نسائمُ منعشة أصابت نفسَه بالبهجة والسرور، وشملتْه الرّاحة والهدوء، فبادله جواده الرّاحة والسّرور، وراح يختال في مشيته.

اجترّ كثيرًا من الذّكريات الماضية التي كانت تأتيه على شكل ومضات، ورغم عدم تذكّره لها لكنّها أضحت محبّبة إلى نفسه تتوافق مع أحداثه الحالية فيخلطها ببعض الذّكريات قريبة العهد فتبثّ في نفسه البهجة والسّرور كثيرًا.. وراحت الذّكريات تختلط ببعض، فمع ومضة من زمنٍ لا يذكره يرى نفسَه ملثّمًا وفي يده سوط، وعلى جوادٍ أسود في ليلٍ بهيمٍ يهجمُ على مجموعة من الناس وهُم في تجمّع لهم خاص، فيوسعهم ضربًا، تختلط مع ذكرى هجومِ العصابة التي أرادت اغتياله.. وتختلط ذكرى محبوبته التي انْقطع عن زيارَتها منذ فترةٍ لانشغاله بمتابعة بناء مدينته الفاضلة مع ذكرى امرأة من أجمل النّساء كان يراها فتتوقُ نفسه لها، ويشعر بحنين لتلك الذكرى.

هيّجت الذكريات في نفسه بعضَ الألم والحنين، وكثيرًا من البهجة والسّرور، حتى شقّ سحبَ ذكرياته صوتُ أذان الفجر، ووجد نفسه قريبًا من مسجده فعرج عليه.

أثلجت صدرَه الحفاوةُ التي تلقّاها من أهل المدينة بعد الصّلاة، فأقبلوا عليه مسلّمين مصافحين مهنّئين له على ما يبذله من بثّ الأمن والأمان، وما فعله مع سماهر وعصابته، راحوا يحثّونه أن ينظّف المدينة من الظّالمين، ويُخبرونه أنّهم من خلفه يؤيّدونه ويؤازرونه، صافحه الكثيرُ، وعانقه بعضُهم، حتّى لقد لثم يدَه أكثرُ من شخص.

لكنّ عينَه كانت تبحث عن صديقِه ابن حنبل، يفتّش في المهنئين فلم يجده.. طافتْ عيناه أركانَ المسجد حتّى عثر عليه بإحدى زوايا المسجد في الأمام، قريبًا من المحراب، فانتظره حتّى فرغ من أذكاره، ثمّ لحق به على باب المسجد.

- هل أنتَ لنا مخاصم؟

قالها عودة وهو يخطو خلفه إلى خارج المسجد.

تركَ جواده ومشى معه كأنّه تابعُه، أو هكذا شعر..

- لمِ أرَكَ منذ زمن يا عودة.

- وأنا لم أرَكَ يا شيخ محمود.
- مهامّك الجديدة شغلتك عنّا!
- لم أقبلها إلّا لكم.
- هل مازالت لنا؟
لم يظهرْ عليه الاضطرابُ الذي ضرب قلبَه وهو يجيب:
- وهل تشكّ في ذلك؟
صمت ابنُ حنبل قليلًا، ثمّ نظر نحو النّجوم، وتمتم:
- أتمنّى أن تقف عند الشّك.
توقّف عودة عن السّير، ونظر نحوه وهو يخفي خلفَ نظرته المتسائلة نظرةً لائمة:
- ولمَ تقول ذلك؟
- لمَ قتلت سماهر؟
كانت مفاجأةً سؤالُه ذلك.
- كنت أظنّ أنّك ستفرح لذلك؟
- إنْ كان للعدل؟
- لقد خلّصت البلد من شرّه.
- وأزحته عن طريقك.
صمتَ متفكّرًا قبل أن يجيب:
- لا بدّ أن تُنظّف البلد من أمثاله حتى يعمّ العدل.
- وإكثارك من العسكر؟!
- من أجل العدل أيضًا.
- وإطلاق أيديهم في أملاك البلد؟
- أنا لم أطلق يدَ أحد في أموال الناس.
- وتخْصيص لكلّ عسكريّ مقدّم عندك قطعة من الأرض؟
- حتّى يبنيها بيتًا له، ويعيش فيه، ويشعر بالأمن هو الآخر، فيعمل بجدّ وإخلاص، ولا تُمدّ عيناه إلى أموال الرّعية.
تمتم الشّيخ محمود بخفوتٍ، فسمعه عودة يقول *أتمنّى*، فجاوبه عودة

متسائلَا:

- ما لكَ يا شيخُ محمود!! لماذا أنت متشكّك؟ فما قبلتُ بهذا العمل، وما أقوم به، وأسعى فيه؛ إلّا من أجلكم.. ولو عليَّ ما قبلتُه وما قمتُ به.. وكلّ ما أقوم به هو مِن أجلكم حتّى يعمّ الأمنُ وينتشر العدل.

قال بصوتٍ سمعه عودة:

- ما قام العدل يومًا على الدّماء.

- وإنْ كانت دماء الظلمة!!

صمتَ الشّيخ محمود، ولم يحرْ جوابًا فاستطردَ عودة:

- يا شيخ محمود، أنت شيخٌ وعالمُ دين، بل فقيه، حتّى سَمّاكَ النّاسُ ابن حنبل تيمّنًا بالإمام الجليل أحمد بن حنبل، وأنت صديقي، وما اتخذتُ صديقًا ولا صاحبًا منذ وطأت قدماي هذه البلدة إلّا إيّاك وسحنون، ولا أذكر لي أهلًا أو عزوة إلّا إيّاكما، وكنت زاهدًا في مدينتكم، وما كانت لي رغبة فيها حتّى قدّمتموني وشجّعتموني أن أقبلها من أجلكم.

صمتَ قليلًا قبل أن يستطرد:

- وأنا.. أنا لم أتغيّر أو أتبدّل، ولن أفعل، وما أفعله ما هو إلّا واجبات ضروريّة لهذا المنصب، وكلّها من أجلكم.

ثمّ صمت، وصمتَ معه ابنُ حنبل.. سمع صوتَ أنفاس ابن حنبل تتردّد، وشعر فيها التّفكير العميق، فلزم هو أيضًا الصمتَ، واحترم تفكيره، وتمنّى أن لا يجيبه بأي أمر، وينتهي الحديث عند هذا الأمر.. فأجابه ابنُ حنبل:

- انظرْ يا عودة إلى القمر.

تعجّب وهو يلقي ببصره نحوه:

- ما له!؟

- نريدُك واضحًا مثله، ظاهرًا للعيان، لا تُخفي أمرًا.

تعجّب عودة لمقولته، فقد شعر فيها أنّ الشّيخ محمود لم يقتنع بما قال:

- لمَ تقول ذلك يا شيخ محمود؟

- حجج.

- ماذا؟!

- تتذرّع بالحجج وتردّ بالحجج لا بالبراهين.

ثمّ صمت قبل أن يستطرد:

- أنت حجّاج.

***

(٢٣)
اللّثام

أتمّ القمر دورتَه، فاختفى وتلاشى ضياؤه، وترك الليل يتحكّم في الكون، فنشر رداءه الأسود على المكان، فكان داعيًا للسّكون والهجوع، كلّ في مأمنه، ولزم السكونُ ظلامَ الليل، وأصبحا صديقين.

كان ذلك الرّكبُ الصّغير المكوّن من رجل وامرأتين أشدّ حرصًا على ألّا يشق صمتُ الليل بأيّ صوت، حتّى إذا ما أصبحوا خارج المدينة من جهتها الشمالية تلقّفتهم عُصبةٌ من رجال ملثّمين يمتشقون السّلاح، كانوا في انتظارهم.. تظهرُ عليهم أمارات القوّة بتمام أجسادهم ومتانتِها، فضمّوهم إلى قافلتهم الصّغيرة، وانطلقوا في الصحراء يسابقون الرّيح حتّى غيّبهم الليل في ردائه.

ظلّ سرحال يقطع ساحةَ عرشه جيئةً وذهابًا أكثرَ من ساعة، لا يهمد ولا يكلّ أو يتعب، قد أشعله الغضبُ فاحمرّت وجنتاه، ويكاد يقدح من عينيه الشّرر، وراح جسدُه ينتفض في شدّته كأنّه وتَرَ عزيزًا حبيبًا، أو غلبه أحدٌ على ملكه، حتّى دخل عليه عودة، وبنظرةٍ شاملة أطلقها عليه وهو يتقدّم نحوه عرفَ أنّه قد تلبّسه شيطانُ الغضب، ولم تتأخّر براكينُ الغضب، فانفجر في وجهه قائلًا:.

- لم تكدْ تتولّى زمام مسئولياتك حتى تفلّت منك الزمام.

بكلماتٍ كالسهام المشتعلة استقبلَه سرحال صارخًا، فاشتعلت النار في أوصاله، ولكنّه تمالك نفسه فأطفأ لهيبها، وروى جذوتها، وهو يقول:

- أؤمر تُجَبْ، وسيعلم مَن أغضبك أي منقلب سينقلبون.

لكنْ لم تفلح كلماتُه في تهدئته، فأكمل سرحال في غضبه:

- أين تكون طولَ اليوم، ويتفلّت منك زمام الأمن؟!!

- ما حدثتْ جريمةٌ واحدة منذ تولّيت مسئولية أمن المدينة، وخاصّة بعد التخلّص من سماهر.

- وتلك القبيلة العاصية التي ترفع لواءَ الثّورة، وتعصي أوامري، بل وتأوي مَن يعصيني!!

ما أحدث عودة منطوقًا بعد كلامه هذا، بل فعلًا أسعد سرحال إتيانه به..

جمعَ عودة كلّ رجاله، حتّى أخصّ رجاله الذين أعدّهم له لحمايته وحماية مدينته التي يبنيها، وصنع جيشًا كبيرًا ظلّ أكثر من ساعتين يخرجُ من باب المدينة.

أرسل العيون قبلَه تكشف له الطّريق، وواتته فكرةٌ شرع في تنفيذها من

فوْره، بعد أن عرف أنّ القبيلة التي يقصدها تتحصّن بأسوار مدينتهم، وهُم في كامل عتادهم وسلاحهم.. فقسّم جيشه ثلاثة أقسام؛ قسم صنعَ منه قافلة تجاريّة كبيرة، وقسم صغير جعله عليهم حرسًا، ثمّ أبقى القسم الثّالث جيشه الكبير معه.

قربَ الفجر على إرسال خيوطه البيضاء لينسجَ منها صباح يوم جديد، حتّى كان ما رتّب له يتمّ تنفيذه كما أرد، فخرج فرسان القبيلة لاعتراض القافلة بعد أن بثتهم العيون عنها خبرًا؛ فخلتِ القبيلة من فرسانها، فكانت فرصته.

تركَهم يشتبكون مع القافلة وحاميتها على أن يطيلوا معهم السّجال، ثمّ كان كالرّمح يخترق المدينة، فطوّقها كالسّوار في المعصم، ولم يشعر به أفرادُ القبيلة، وما كاد الفجر يؤذّن إلّا وهو وجيشُه وسطهم فأُسقط في أيديهم، ولم يستطيعوا ردًّا، وباتت أمانيهم أن يأتي فرسانهم نجدةً لهم، لكنْ لم يحدث هذا أبدًا.. رأح عسكر عودة يعيثون في ديار القبيلة، فأريقت دماء، وهُدّمت بيوت، وأحرقت غيرها، ولم يمهلوا فارسًا أو حاملَ سيف إلّا أردوه، أو أسقطوه جريحًا.

أشرقت الشمس، ومالت قليلًا في السّماء، ونادى منادٍ: الصّلاةُ جامعة.. في وقتٍ غير صلاة. حشرت القبيلة كلّها في جامعها الكبير، لم يتخلّف منهم صغيرٌ أو كبير، يحوطهم العسكرُ من كلّ جانب، وقد ركبهم همٌّ عظيم.

ارْتقى عودة درجَ المنبر بهدوء، ووقف يرمقُهم بعيونٍ نارية لا تتخطّى عينًا إلّا صوّبت إليها النّظرَ بسهام لحظٍ لا تردّ.

كلماتٌ كلّها غضبٌ وغلّ راحَ يخطب فيهم فسبّهم ونعتَهم بأبشع ما يُقال، واتّهمهم بالخيانة والغدرِ والخسّة، فاشتعلت القلوبُ بالنيران، لكنّها نيران تأكلُ نفسها، وعندما شعرَ عودة بتملّكه لهم أعلن دستورَه الذي لا يردّ، وعقوبته التي ستنزل على مَن يخالف قوانينَه، ولن يقبل أي عذرٍ ولا حجّة مهْما كانت.

ثمّ رفع اللّثام عن وجهه وهو يعلنُها صراحة:

- فلتحفظوا هذا الوجهَ جيدًا لأنّه مَن كُتب عليه أن يراه مرّة أخرى فليعلمْ أنّه لن يرى الدّنيا بعدها، وما سأقوله لا يردّ، ستضرَب عنقُ كلّ مَن يأوي أيّ عدوّ للملك سرحال، أو عاصٍ له.

صمتَ يرقبُ العيون المُعَلَّقة به، فأكمل بحَسْم:

- لا خروجَ بعد المغرب، ولا قبل الفجْر، وليعلم الجميع أنّ للدولة على كلّ فردٍ فيها؛ كبيرٍ أو صبيّ بلغ الحلمَ خُمْسَ ما يغنمه في اليوم يسدّدُ نهايةَ يومه، وممنوعٌ على رجالها وشبابها حمْلُ السّلاح داخل المدينة، ولا يُسمح له إلّا بخنجرٍ فقط إذا ما كان خارجَ المدينة يقضي به حاجته.

رِجفتِ الأعينُ تبحث عن منقذٍ، فلم تجدْ غير كبيرهم الذي وجدَ نفسَه مدفوعًا

أنْ يباشر مهامّ زعامته، فتساءل كيف لا يخرج بعد المغرب وهناك صلاةُ العشاء لم تقْضَ بعد!!

بنظراتٍ كالصّواعق نظر نحوه عودة، وبكلماتٍ كالقواصم قال:

- تقصدُ أنّك تتحجّج بصلاة العشاء حتّى تخرج من بيتك وتخالف أوامري!!

ودونَ كلمة أخرى أشار إلى عساكره فاخْتطفوا الرّجل دون تردّد، فاقتلعوه من وسطهم وخرجوا به، فلزمت الألسنُ الحلقوم، وغطّت الجفون العيون، وحامَ الخوفُ فوق الرؤوس التي طأطأت حتى لامست الذّقون الصّدورَ، فأكمل في صرامة:

- أين سعيد القمّاش وأسرتُه؟

ران الصّمت على الجميع، وتردّد صدى قلوبهم الواجفة، ولم يجبْه أحد، فأعاد الكلام فأعادوا الصمت، فأعلنَها بقوّة:

- مِن السّاعة حتى مغرب اليوم على مَن يأويه إنْ لم يأتِ بهم في القيد ستُقطع رأسُه ورأسُ أهل بيته جميعًا.

ذهبَ وترك الوجلَ يتّخذ من قلوبهم سكنًا، ينخر فيه فعشّش الرّعبُ، وزاد مِن خوفهم أنّه لم ينجُ من فرسانهم إلّا القليل، الذي راح مشرّدًا في الصحراء لا يُعرَف له طريق.

ببيتِ زعيم القبيلة الذي اتّخذه مسكنًا له، دخل عليه ثلاثةُ نفر-رجل وامرأتان- رأى فيهم طلبَه، وقفت المرأتان وتقدّم الرجل منه، وقال في عجلة من أمره؛ يخاف أن يسبقه أحد:

- أنا بُغيتك وطلبُك، أنا سعيد القمّاش، وهاتان زوجتي وابنتي، ولم نهربْ من أحد؛ بل كنّا في زيارة لبعض التّجار، وأردت أنْ أصطحب معي أهلي حتّى يقوموا بتغيير الجوّ.

كانت المرأتان تختبئان خلفَ نقابهما، لكنّه لاحظ أنّهما تتمتّعان بجَمال الجسدِ في تناسقه، فجذبَه قوامُ البنت، وراحت عيناه تفتّشان فيها لكنّهما ارتدّتا خائبتين أمام حرْز حجابها فتسرّب في نفسه فضولُ كشف جَمالها، فأصدر قرارَه بحبسهم في بيتٍ جعله خصيصًا لهم، يكون فيه الحاجّ سعيد القماش في حجرةٍ والمرأتان في حجرةٍ مُنفصلة، وأسرّ إلى سحنون أن يرسلَ له مَن يفتّش في المرأتيْن، ويأتي له بأوصافهما، خاصّة الصغيرة، ولم يمضِ سحنون غيرَ بعيد حتّى عاد بما أثلج صدره، فقرّر في نفسه أن يتأكّد فاسْتدعاهَا فامتثلتْ أمامه وهي ترتجف وقد ضمّت ثوبها إلى جناحيْها ارتباكًا وقلقًا، فتجسمت الملابس حولَها فبدتْ أمامه بضّة جذابة.

صرفَ مَن حوله مِن حضور، حتّى حرسه، وراح يبثّ فيها الطّمأنينة والهدوء،

ووعدها أنّ لها ولأبويها الأمان إنْ قصّت عليه قصّتَهم. أخذت تقصّ عليه حكايتهم مِن أوّل حَسَن تلميحًا حتّى سرحال تصريحًا، وراح يراقبُها ويتحيّن الفرص حتى سكتت تلتقطُ أنفاسها فتناول كأس ماءٍ وقدّمه لها فتناولتْه بيدٍ مرتجفة متردّدة، كيف تشرب أمامه وهي بنقابِها، فتقدّم إليها بخطى ثابتة وقلبٍ مُصرٍّ، ودون تردّد نزعَ نقابها فشمَلَها الارتباك، وشملَه الانْبهار، أسقط من يدِها كأس الماء.. ابتسم منبهرًا في سعادة.. قام بإحضار آخر لها، وبحروف ثابتة طلبَ منها أن ترتوي، ثمّ رجع إلى كرسيّه يتأمّل بخياله جَمالَ محيّاها، حتّى جلس على كرسيّه فراح يتأمّلها بعينين متنمّرتين.. رشفت من الماء القليلَ ما لا يروي طفلًا صغيرًا، وأسقط ارتباكُها من الماء الكثيرَ على صدْرها وملابسها، ووقفت مرتبكة، وقد خضّب وجهها الحياءُ، ثمّ بحروفٍ مُتلعثمة خجلة طلبت منه نقابَها.

- سيّدي، ردّ عليّ ستري؛ سترك الله.

سمعَ دقّات قلبه تعزفُ على كلماتها لحنًا جميلًا لم يشعر به من قبل، فابتسمَ لها وهو يجيبها أن تأتي وتأخذه ، فتقدّمت نحْوه بخطى أبهرته رغم أنّها مرتبكة... سرحتْ عيناه في تفاصيل جسدِها، وحدّثته نفسُه أنْ ينزع عنها بقيّة ملابسها، وكادت يداه تنفّذ خاطرَه، لكنّه تراجع.

استوتْ أمامه بكامل حجابها، فلم يقلّ جَمالها شيئًا، وقرّر قراره أنْ لن يقرَبَها أحدٌ غيره، حتّى لو كَان سرحال نفسُه.

***

(٢٤)
بدايةُ النّهاية

سكنتْ جوانحه السّعادة، وسكنها هو.. انقطع عودة عن الحياة أو كاد.. أضحى يعيش حياته كلّها في قصره المشيّد قريبًا من حبيبته يراودُها بشتّى الطّرق، وهي مُستعصمةٌ عنه بخوفِها، ومتحصّنة منه بحبّها لابن عمّها.. قلّتْ نوباتُ خروجه، وقصرت، وأضحى يخرج يومًا بعد يوم، ثمّ أضحتْ يومًا كلّ ثلاثة أيام، ويقضي بعد العشاء بساعة، ثمّ يعودُ أدراجه نحو القصر.. خطبَ ودّها ووَدَّ والديها بكلّ أنواع الودّ فأنْعمَ لهم الإقامة، وأغدق عليهم كلّ أصناف ما لذّ وطاب من مأكل ومشرب، وغمرهم بالهدايا، وراح يتبسّط مع أبيها ويسامره الليالي، ويحاكيه ويشاوره أحيانًا.

سكنَ أبوها ومن بعدِه أمّها إليه، وشعروا أنّهم بقربه في حماية دائمة، فنعموا بالعيش، وعندما شعر بتقبّلهم الأمر والهدوء نحوَه شرع يلمّح له عنْ رغبته بالزّواج من ابنته، فحاكَ صدرُ الوالد بالرّفض أوّل الأمر لكنّه لم يظهرْ، ثمّ ما لبث أنْ لانَ بعد أن حدّث زوجته فسعدت وشجّعته بأنْ يقبل إذا ما صرّح، ثمّ أسرّت الأمرَ إلى ابنتها التي وجمت وغاصتِ الفرحةُ في بئر أحزانها، ورفضت بإصرارٍ تعجّبت له أمُّها، وسألتْ أمَّها:

- أأهربُ من سرحال حتّى أقع في عودة؟!

- يا بنيّتي، هناك فرق بينهما.

- أنا لا أرى فارقًا بينهما، فمَن يعمل مع الظالم هو ظالمٌ مثله.

- لا تتفوّهي يا بُنتي بهذا الكلام الكبير، واعلمي أنّه كان لنا المأوى والملاذ.

خطَتْ علياء بضعَ خطوات بعيدًا عن أمّها، ثمّ قالت:

- ها قد وضحتِ الرّؤية وظهرت النيّة، وهذا ما كنت أتساءل عنه.. كيف له أن يُخْفينا عن عيون سرحال..

- ومَن قال لك ذلك؟! لعلّها كانت بعلمه؟

- قلبي يحدّثني غير ذلك.

- لكنّه غير سرحال؟

- كلّهم واحد، وما تتغيّر غير الوجوه.

- يا بنيّتي، أنت رفضتِ سرحال ولك الحقّ وكلّ الحقّ في ذلك، وحمدنا الله أنْ شملنا القائد عودة برعايته وحمايته لنا من بطش سرحال، لكنْ إذا رفضتِ عودة أيضًا أخافُ أن نصبح في مهبّ الرّيح بلا حماية وأمان تتلاطمنا رياحُ

الغضب من كلّ اتّجاه.

- الحامي هو الله.

- ونِعْم بالله. لكنْ أخاف بطشهما، وليس لنا راعٍ غير أبيك، وأنت تعلمين هو رجل كبير.

دارتْ علياء حول أمّها، ثمّ وقفت خلفها، ووضعت يديْها فوق كتفها، ثمّ قالت:

- قريبًا سيأتي حسن ابنُ عمّي، ويكون لنا سندًا.

- وما دخلُ حسن؟

- أنسيتِ بأنّ أبي قد أعطاه كلمة بخطبتنا؟! ووعْدُك لأمّه!!

- هذا أمرٌ له زمنٌ بعيد، والآن لا نعرف عنه أي شيء.

- بل هو سالم، وقريبًا سيعود.

- مِن أين لك هذه الأخبار؟

لاذتْ علياء بالصّمت بعد أن شعرت أنّها قالت ما لم تكنْ تقوله، لكنّها ما لبثت أن أجمعت عزمَها، ثمّ قالت:

- لن أجد أفضلَ من ابن عمّي زوجًا لي.

هزّت أمّها رأسَها علامةَ الفهم، وآثرت الصمتَ بعد أن سمعت جلبةً كبيرة وحركةً شديدة خارج مخدعِها، خطِفَ قلبُها وتوجّست منها شرًّا.

أرهفتَا السّمع، بلغ الفضول عند أمّها مبلغًا جعلها تتّجه نحو الباب.. حاولت مرارًا فتحَه لكنّه صعبٌ عليها كأنّ هناك بالناحية الأخرى مَن يمسكه.. أخذ الضّجيج بالخارج، الذي لا ينبئ بخير- يزداد ويقتربُ منهم فأصابها الهلع.. تراجعت حيث ابنتها تنشدُ معها الهرب لكنّه صَعْب عليها منافذ الهرب حيث شرفتها بالطابق الثاني، وصعْب عليها القفز منه؛ فلزمت وابنتُها حافّة السّرير وهي تفكّر في عودة.. أين يكون الآن؟ عندما تناهى إلى سمعِها مَن ينادي سرحال، ويُخبره أنّهما بتلك الحجرة.

لم يتأخّر علْمُ عودة بما حدثَ بقصره، فهاله ذلك، فتملّكه الغضب تملّكًا جعل كلّ جسده ينتفضُ على أثره، فتحاشاه مَن حوله وهو يلوي عنقَ جواده ويكرّ راجعًا، مطلقًا لجواده العنان، وتبعه حرسُه، وراح جندُه المنتشرون في أرجاء المدينة يأتون إليه من كلّ صوبٍ بعد أن أرسل مَن يستدعيهم على عَجل.

بعد وقتٍ ليس بالقليل عاشتْه علياء وأمُّها في خوف وهلع، دفع بابُ حجرتهما، فانفتح في عنفٍ على مصراعيه بعد طرقاتٍ شديدة عليه وتدافُع.. مرقَ منه سرحال وبضعُ جنودٍ اندفعوا إلى الحجرة، فهالَ ذلك المرأتيْن، ودوّى صراخُهما مرعوبتيِن، فأمسكتا بعضهما البعض أكثر، وضمّتها أمّها إليها أشدّ.

ردّدت أمّها الاستعاذة، وطلبَ السّتر من الله، فرمقهما سرحال بنظراتٍ ناريّة قد أشعلها غضبٌ مضطرم، ولزمَ الصمتَ قليلًا، وأنفاسه تتحدّث نيابةً عنه تتأرجحُ بين زفير شديدٍ ينفث به لظى قلبه المضطرم حتّى إذا ملأ عينيْه من المرأتين، وما يحيطهما من خلاء، حتّى فار الغضبُ عن قلبه، فصرخ هادرًا يسبّ عودة بأقذع الألفاظ، فنعتَه بالخيانة والغدر والخسّة وعدم الشّرف، وراح يتحرّك في أرجاء الغرفة جيئةً وذهابًا وهو يرمقُ المرأتين كلّ فترة، مرّة بغضبٍ ومرّة بلوْمٍ شديد..

توقّف على منظرهما وهما تتدّثران بثوب الرّعب، وكلّ جسدهما ينتفض.. شعرتِ المرأتان بطول نظره عليهما، تنبّهت أمّها بأنّهما يرتديان ملابسَ البيت الخفيفة تكشفُ ما يخفى عن الأعين، فجذبتِ الأمّ ملاءة السّرير فلفّت جسدَ ابنتها معها به، فتلملمتِ الملاءة عليهما فسترتْ بعضَ جسدهما.

تنبّه سرحال لجسدهما البضّ، فراحت عيناه تخدشُهما دون حياء، وتستشفّ ما وريَ عنه، فشابَ غضبَه دبيبُ رغبة دفعتْه إلى أفكار مجنونةٍ تقدّم في تنفيذها دون تردّد.. فجذبَ البنت بعيدًا عن أمّها، حاولت الأمّ منعَه فجذبها الحرسُ بعنف يمنعُها.. جذب ملابسها يمزّقها وهو يضمّها إلى صدره ضمًّا يحاول فيه لثمَها من وجهِها، وحينما فشل طرحَها على الفراش وبدأ يفكّ أزرار ملابسه تمزيقًا.

صالَ صليلُ سيوف وطعنٍ وقتلٍ حولَه حتّى صكّ أذنيه صوتُهم فالتفّ بعنف، فراعَه وقوف عودة بجسدِه الضّخم يسدّ الباب، وبعضُ جندِه يمنعون جنودَ سرحال منعَه.. عرفَه سرحال رغم تلثّمه.. فاشتعل الغضبُ بجسده حتّى الْتهب، فتقاذف جسدُه انتفاضًا، وسحب سيفَه من غمدِه، ثمّ هوى به نحو عودة الذي تلقّاه على حدّ سيفه بثباتٍ فدوّى في المكان صليلُ غضبهما المضطرم في قلبِ كلٍّ منهما باصطكاك سيفهما، لكنْ كان عودة أثبتَ وأقوى فبدأ سيفُ سرحال يهتزّ في يده ويتراجع من قوّة ضربات عودة التي زادتْ قوّةً مع ازدياد غضبِه وحنقِه وحقدِه عليه.

راحَ سرحال يتراجع إلى الخلف، عيناه تبحث له عن منجًى حتّى اصطدم ظهرُه بالجدار فلصقَ به فزادَ عودة من حقدِ ضرباته وتلاحقها حتّى كلّت يدُ سرحال فانفلتَ السّيف من يده، لم يمهله عودة فهوى بقوّة غضبِه على عنقِ سرحال وهو يصرخُ فيه:

- آنَ أنْ يستريح الناس منك.

دوّى في المكان صريخ المرأتين وهلعهما، وتعلّقت الابنة بأمّها تخفي وجهها فيها، وتعلّقت عينا أمّها بعودة استغاثةً وخوفًا.

احتشد النّاس خارجَ أسوار القصر على أثر حشدِ سحنون لهم من كلّ مكان، ثمّ سمح لهم بفتحِه أبوابَ القصر أمامهم، فغمروا ساحتَه حتى فاضوا،

فامتلأت بهم ساحةُ القصر، وبقي أكثرهم خارجَ أسوار القصر،

هالَهم ضخامةُ القصر وعلوّ شرفاته، وأعجبهم دقّة زخارفه وبهاءها، وتعجّبوا لرحابة ساحته واتّساعها.. استمرّ ضجيجهم وصخبُهم حتّى أطَلَّ عليهم عودة من إحدى الشّرفات وهو مازال يتلثّم بلثامه الذي تلوّث بالدّماء.. رفع يدَه ملوّحًا بالصّمت وطلبِ الاستماع، راحتِ الأصوات تهدأ قليلًا، لكنّها لم تنقطع.. فأعلى صوتَه الجَهْوري يخطبُ فيهم:

- يا شعبَ مدينتنا العامرة، يا شعب الطيبة والوداعة، إنَّ لله في دهركم لأمور تتبدّل كلّ مدّة.. يأخذ أمرٌ في العلوّ فيتبعه آخرُ في الخفوت، فمَن يتّقِ الله ويلوذُ بكنفه يعلُ أمرُه ويزدهر، ومَن يكنْ لله عاصيًا شاقًّا ظالمًا لرعيَّته غشومًا في حكمه يذلّه الله من فوق كرسيّه كما أزالَ رأسَ سرحال من فوق كتفه.

ثمّ ألقى برأس سرحال إليهم، فحلّقت في الهواء مدّة وعيونُهم تتابعها، حتّى سقطت أمامهم فأُخذوا من هوْل المفاجأة وبُهِتوا ولُجِموا، لا ينطقون مدّة ليست بالقصيرة، حتّى بدا على أحدهم صراخُ فرحٍ ونشوة، وتبعه جمعٌ ليس بالقليل في فرحه، فرحًا مشوبًا بالحذر والخوف، فأكمل عودة:

- لقد سارَ فيكم سرحال سيرته السّيئة من ظلمٍ وجور واغتصاب.. كان قاسيَ القلب عليكم، شديدًا لا يرأف لفقرِكم أو يرحم ضعيفكم، فكم يتّمَ بعضَكم ورمّل نساءكم، حتّى بتّم منه في خوفٍ شديد، ويأبى الله إلّا أن يبدلكم خيرًا منه، مَن يحنو عليكم ويضعُكم في عينيه فتكونوا نورَه الذي يسترشدُ به، وضياءه الذي تستمدّون منه الضياء، وهو لكم خادمٌ مطيع.

أخذ صوته الحدّة والغضب:

- وسيكون سيفًا صارمًا بتّارًا على أي عدو لكم، أو ظالم، ولن يتوانى عن نُصرتكم وإغاثتكم، ولن يكون بين ندائكم وبين إغاثتكم إلّا مسافة الطريق.

صمتَ وعيناه تدوران فيهم، تفتّش عن أثر كلماته فيهم، فلمّا اطمأنّ أكمل في حماسة:

- لقد أبدلكم الله ذلك الظالم الغشوم بمَن هو أفضلُ منه، يرعاكم ويحبكم ويحْنو عليكم، وإنّي رافع اللثام عن وجهي لتحفظوه جميعًا، ولتعرفوه؛ فهو غوثكم وناصركم.

أماطَ اللثام عن وجهِه وهو يصيح باسمه الذي أحبّه منذ سمّاه به صديقُه ابن حنبل:

- أنا حَجَّاج.. أنا حَجَّاج.

أخذ يردّدها بعنفٍ وقوّة، فأُخذت الحشودُ واضطربت قليلًا وتردّدت بين ترديد

اسمِه القديم، أم ما يقولَه؟ لكنّ أصوات أخذت في العلوّ حسمتٍ التردّد تنادي باسْمه الجديد فتبعتها الحشودُ كلّها صارخة باسْمه حتّى صار هتافًا:

- يحيا الحَجَّاجُ، يحيا الحَجَّاجُ.

تراجع الحَجَّاجُ إلى الخلف خطواتٍ حتّى غاب عن ناظريهم، فأخذت الأصوات في الهدوء، وخمدت حدّة الهتاف قليلًا، لكنّه لم يلبث أنْ عاد وفي يده علياء، وقد تدثّرت بملابس زاهية، وعلى وجهها حجابه.. فرفع يدَها إلى أعلى ممسكًا بها في يده وهو يقول:

- وأبدأ عهدي بأنْ أزُفّ إليكم نبأ زواجي.

دارتِ الدّنيا من حولها، وشعرت بانْهيار شرفة القصر، وقلبها يعتصرُه الألم، واستسلمت تغيب عن الوعي، وأصوات الحشود تتردّد في أذنيْها بالدّعاء له والهتافِ باسمه.

***

(٢٥)
المَلك

اعتلى كرسي الملك حجّاج- كما أضحى يُطلق على نفسه- وتوقّف عن التّساؤل مِن أين هو؟ ومَن يكون؟ وما هو ماضيه؟ بعد أنْ أصبح يعرفُ حاضره، غير أنّ شعورًا خفيًّا استقرّ بوجدانه، إنّه الآن أكثر اتّساقًا مع ماضيه، نبتَ في قلبه، ثمّ نما شعورٌ قويّ بالعزّة والسيادة وتشعّب في كيانه، فملك عليه أمرَه، وجعله يعيش في سعادة.. أعطاه قوّة أنْ لا أمرَ فوق أمره، وعزّه أنّ الكلّ تحت طوعه.

قضى ثلاثة أيام يجوس خلالَ ديار أعوان سرحال، فصادر أموالَهم التي وجدها لا تُحصى، وشرّد بعضهم، وسجن آخرين، ولم يتورّع عن قتل كبيرهم دون تردّد.

اختفى كلّ مَن كان حول سرحال، منهم مَن هرب إلى بلاد أخرى، ومنهم مَن لم يُعرَف له مكان، ومنهم مَن ظهر بعد فترة مثل الشّيخ عتمان.. رآه بعضُهم يتسوّل أمام المسجد الكبير بعد أن كفّ بصرُه.. وزوجة سرحال عزّة الملك أغا رآها البعضُ تهيم على وجهها متّسخة البدن، والملابس ممزّقة، لا يُعرَف لها اتّجاه بعد أنْ فقدت عقلها.

سكنَ سحنون قصرَ سرحال، وكان كثيرًا ما يصعدُ في شرفته العالية، وينظر حيث كانت عشّته السّابقة فيغرق في الضّحك والسعادة، ويشكر- في سرّه- حجّاج، ويشكر نفسَه على إيوائه له في ذلك اليوم العاصف عندما خرج إليه من العدم.

شعرَ حجّاج بالرّاحة، ونَعِم بها، وراحت تدغدغ مشاعرَه، وجذبته، فاستسلمَ وانسحبَ معها في أحلامه السّعيدة فرحًا مسرورًا أيام وليالي فصلته عمّا حوله مدّة، حتّى أفاق على تجمّع كبير خلف أسوار القصر، وهُم في إلحاحٍ أن يقتحموه، عندما طالعهم من شُرفته وهو مغتاظٌ من تجمّعه ذلك، لمح وسطهم صديقَه الشّيخ ابن حنبل فأمر الحرسَ أنْ يُدخِلَه عليه، فلم يغبْ إلّا قليلًا حتّى مثُلَ أمامه، ومعه بعض الرّفقاء الذين أبوْا أن يتركوه، وتمسّك هو بذلك أيضًا.

أقبلوا عليه تكتنفُهم القوّة، يدفعهم الحقّ وحبُّ البلاد، فألقوا عليه سلامًا دونَ تحيّة المَلك، فأسرّها حجّاج في نفسه ولم يبدِها.. دعاهم للجلوس وهو يبشّ لهم، فابتدأ الشّيخ محمود بالكلام، فسُرّ لذلك لتوقّعه أنّه سيحسب لسابق المعرفة والصّداقة بينهما حسابَها، فقال بعد أن حمد الله:

- لقد تخلّصنا من ملكٍ ظالم غشُوم كان يكبسُ على أنفاس الشعب، ويقيّد حرياتهم، وينغّص حياتهم، وسعِدنا بذلك أيّما سعادة، خاصّة أنّه كان على يدِ

شخص نعرفُه ويعرفنا، عاش أيامنا، ويدري بظروفنا، وعانى في بعض الأحيان من الظلم مثلنا، وأملُنا أن يكون على يديه العدل الذي تمنّاه الجميع، وهذا ما نتوقّعه.

سرّ الحجّاج بهذه الخطبة البسيطة الدّافئة بمشاعر المودّة، وتناسى- لبعض الوقت- تلك الطّريقة التي حضر بها، وتلك الجمهرة التي أتتْ معه بعد أنْ أوجس منها.. أكمل الشيخ:

- وما كنّا نودّ أن يقتل سرحال إلّا بعد محاكمةٍ عادلة يشهدُها الجميع، تكون عبرةً لغيره على طول التّاريخ، فتكون سببًا في استقامة مَن يليه.

غاصَ قلبُ الحجّاج بأسى، هل يقصدُه هو بذلك التّصريح؟ لكنّه لزمَ الصّمت..

- حتى تلك الطّريقة التي قُتل بها، وإلقاء رأسِه على النّاس، فيه ما فيه من إهانةٍ للإنسان الذي كرّمه ربّه.

كاد ينفعل الحجّاج، لكنّه تمالك نفسَه وهو يتكلّم:

- الإهانة لصاحب الرّأس وليس للإنسان.. ثمّ إنّكم تريدون محاكمته، وماذا بعد تلك المحاكمة؟

- الحكمُ عليه بما يناسبه.

- وماذا ترؤن ما يناسب؟ بعد أن قتل وسرق واغتصب وشرد وفعل الأفاعيل بكم؟ ما هو الحكمُ المناسب له؟

لزمَ الشّيخ محمود الصمت، ومَن معه، فأكملَ هو يجيب:

- القتل بلا شكّ.

فعلا صوتُ أحدهم يردّ:

- لكن ليس بتلك الطريقة!!

فأجاب بقوّة وثبات:

- تعدّد القتل والموتُ واحد.

رَنَّ سكونٌ على القاعة، فاستقرّ الهدوء بقلب الحَجَّاج الذي قطعه صوتُ الشيخ محمود:

- الآن، البلادُ بلا حاكم.

انقبض قلبُ الحَجَّاج، وتبدّى الغضب خلفَ قسماته، أخفاه وراء التّساؤل:

- ماذا تعني بلا حاكم؟

- لا بدّ من اختيار حاكمٍ للبلاد يدير شئونها.

ضَيَّق حَجَّاج ما بين عينيه وهو يتساءل بمكر:

- ومَن ترونه أجدرُ لحكم البلاد بعد أن خلصْتُكم من الملك السابق؟

- هذا ما لا بُدّ أن يستقرّ عليه اختيار الشعب.

فردَّ بنبرةٍ لازمتها السخرية:

- وهل سنمرّ على فردٍ فرد من الشّعب، ونسأله عن رأيه؟

فرَدّ الشّيخ محمود بجديّة:

- بل تُؤخَذ الشّورى من أصحابها.

- ومَن هُم؟

- أصحابُ الحلّ والعقد القضاة وشيوخ الأزهر والكبار من القوم.

- وأنا؟!

قالها سريعة، وبحدّة متسائلًا، ففطنَ لها الشيخ محمود فرَدّ بهدوء:

- تعدُّ مِن أصحاب الشّورى.

فردَّها الحَجَّاج وراءه بهدوء:

- أصحابُ الشّورى، أي أصحابُ الحلّ والعقد، أي أصحاب الملك.

- لا مُلك بعد اليوم.

قالها الشيخ محمود بنبراتٍ حاسمة، ثمّ أكمل بعد أنْ تمالك نفسه:

- بل حاكم يرتضِيه النّاس جميعًا يكون ملمًّا بأمور السّياسة والحلّ والعقد، وله من الحِنكة والخبرات ما يؤهّله ليدير شئون البلاد، ويصلح حالَها في شتّى المجالات الزّراعية والصناعية والتجارية والاقتصادية والسياسية، وغيرها.

ردّد الحجّاج بصوتٍ مسموع ما قاله صديقهُ الشيخ محمود، ثمّ تساءل في هدوء كاذبٍ وشبْهِ تسليم:

- وما العملُ الآن؟

بشّ الشيخ محمود ومَن معه، وارتاحت نفسُ مَن معه لرؤية علاماتِ الهدوء والتّسليم على وجهه.

- نخرجُ الآن ونجتمعُ مع أهل الشورى، ونتداول الأمر في اختيار الشّخص المناسب.

- رائع. لكنْ لمَ الخروج! اكتب لي كلّ أسماء مَن ترونهم أهلَ الشّورى، ونجتمع جميعًا هنا، ولا نخرج إلّا ونحن مستقرّون على حاكم البلاد الجديد.

دارتْ همهماتٌ تؤيّد الرأي.. فاستضافهم الحجّاج في الحجرة الخاصّة بالاجتماعات، وأدار عليهم كئوس العصائر وألذّ المشارب، وتركهم بعد أنْ أخذ منهم أسماء وعناوين مَن يرونه يصلح للشّورى في البلاد، وتركهم.

تنوّع الحديثُ، ودار بينهم فيمَن يصلح لإدارة شئون البلاد فترشّحت شخصيّات بين عالمٍ وأديبٍ وعابدٍ وقائدٍ، ورشح محمود بدوْره الحجّاج، فقد رآه أنسبهم؛ لسابق معرفته به، ولنشأته المتدينة، فوافقه البعضُ وتحزّب البعضُ لاختياره، حتّى مرّ وقتٌ طويل سريعًا، ولم ينقطع عنهم المأكل والمشرب حتّى باتوا بمنتصف الليل، أو قريب هو.. فتنبّهوا أنّه حتّى هذا الوقت لم يأتِ أحد ممّن سمّوهم.

شعر أحدُهم بحاجتِه لتفريغ ما تناوله.. فتحرّك نحو الباب فوجد البابَ مغلقًا بإحكام.. طرق عليه طرقاتٍ خفيفة، ما لبثت أن زادت قوّة، فتنَبّه له الرّفاق، وتفاجئوا أنّ الباب مغلَق من الخارج بإحكام، فارْتابوا وأخذوا في النّداء والصّياح، ثمّ الصّريخ، لكن لم يجبْهم أحد حتّى أشرقتِ الشّمس مع دخول أشعّتها بقوّة من خلال النوافذ، اشتعلَ النشاط بالحجرة بعدها، ودار التّساؤل في سخط، ولم يتوقّف الطّرقُ على الباب أو النّداء.

انفتحَ الباب على مصراعيه فجأة، وخلفه الحجّاج، ومِن خلفه جنوده، فتغاضب بعضُ المجتمعين، وتكدّر خاطرُ البعض، وتضايق الآخر، ودارت همهمات متسائلة بضيقٍ وغضب، وسأله صديقه الشيخ محمود متعجّبًا، لا تُخفي نبراتُه ضيقَه:

- لماذا أغلقتَ علينا الباب؟

- كي أعطي لكم كلّ الحريّة في مناقشتكم، واختيار مَن ترونه مناسبًا.

- لكنه لم يأتِ أحد ممّن سمّيناهم لك؟

- بل جاءوا لكنّهم في اجتماع مستقل.

ثمّ استطرد بتلقائيّة:

- هكذا أردوا..

ثمّ أكمل يُجيب على سؤالهم الذي لم يسألوه:

- لعلّهم رأوا بهذا أكثر حريّة.

فتقدّم أحدهم يستعدّ لإلقاء خطبة، فقال قبل أنْ يقاطعه الحجّاج:

- والآن؟

- والآن قد استقرّ الفريق الآخر من أهل الشّورى على شخص واحد، ويسألونكم الرأي فيه.

فتساءل الجميع:

- مَن؟

- أنا.

قالها صريحةً صارمة بقوّة.

فعَلَا الوجوه ضيقٌ يحتضنه غضبٌ متوتّر، وعلَتْ أصواتُهم، وأبدى المعترضون رفضَهم، وقالوا إنّ هذه ليست شورى ولا اختيار.. وكانت عينا الحجّاج ترتكز على صديقه الشّيخ محمود حتّى تكلّم- ورغم تأييده في السّابق لاختيار الحجّاج للأمر- لكنّهم تعجّبوا لرفضه الآن، فقال:

- هناك بالفعل مَن اختارك، وهناك مَن اختار غيرَك، لكنْ كان هذا على أساس إجراءت سليمة، واختيارٍ صحيح ظاهرٍ للجميع.

فزفرَ الحجّاج في سخريةٍ مستترة، وهو يسأل:

- وماذا تطلبون؟

ردّد الجميع إجابةً واحدة:

- لا بدّ أنْ نجتمع بهم، ونبحث الأمر.

- لكم ما تريدون.

قالها بسخريةٍ مستترة خلفَ قوّة أزعجتهم، ثمّ نادى على جنوده أنْ يرسلوهم إلى أصحابهم حيث يجتمعون.. تحرّك الجميع في نشوةِ نصرٍ طافت بهم جميعًا، وعلى مشارف الباب التفتَ إليه محمود، وهاجسٌ غريب شملَ قلبَه، قال:

- هل تعرف لماذا سمّيت حجّاجًا يا حجاج؟!

ضَيّق حجّاج ما بين عينيه يستدعي الذّكريات وينبّه عقله للإجابة المناسبة:

- لأنّي أمتاز بالذّكاء والفطنة والفقه، هذا ما قلته لي زمان.

وقلت أيضًا:

- إنَّ هذا جعلك كثيرَ الحجج لا تقوم بعمل إلّا وله حججه عندك، لا يسألك أحدٌ إلّا قدّمت له حججَ ما تريد.

صمتَ الحجّاج يستحثّه على المزيد، فما دعوى هذا السؤال الآن، فلم يخيّب صديقه آمالَه، وأكمل:

- فأتمنّى أن تكون كذلك، وإلّا تكون حجّاجًا آخر.

لم يفهمْ ما يرمي إليه، وتركه متردّدًا في دوّامة من الأفكار والتّساؤلات، ولم

يرسُ على أمر.

***

(٢٦)

صداقة

تساءل الناسُ كثيرًا عن سبب غياب أفرادٍ منهم كانوا يحسبونهم من المميّزين والمقرّبين لدى الحجّاج.. تسرّبت أنباء بأنّهم لم يرجعوا منذ اجتماعهم مع الحجّاج، ورغم سؤالهم للحرّاس والحُجّاب عن وفودهم أكثر من مرّة، لكنّهم تفاجئوا بإنكارهم وفودَهم نهائيًّا على الحجّاج.

بعد فترة، نسي الناس أمرَهم لكثرة المشاغل، ونسوا أمر الشورى واختيار الحاكم، وانتظروا انتهاء المدّةِ التي فرضها الحجّاج لإدارة حكم البلاد حتّى يستتبّ الأمن، وتهدأ الأمور أوّلًا، ثمّ يستقرّون على حاكم بديل، وقدّروها ستّة أشهر تجدّدت ثلاثَ مرّات، في نهايتِها ظهر بعضُ الغائبين.. ورغم ملابسهم الجديدة المهندمة إلّا أنّهم كانوا ضعاف الصّحة، متضعْضي القوّة، وكان البعضُ إذا تكلّم يهذي، لا يفهم له منطق، وما ينفكّ يردّد: لا أحد غير الحجّاج يصلح للبلاد، الحجّاج، الحجّاج، لم يفهم النّاس ماذا يقصدون، ورجّح أكثرهم أنّ هذا رأيُهم رغم أنّ حالهم لم يعجبهم، ورغم تشكّكهم في قواهم العقلية، لكنّهم استمرّوا في الحياة، وخاصّة بعد تعميم النّداء للحجّاج سلطانًا للبلاد، وساعد في ذلك سير الحجّاج فيهم سيرة حسنة، فلم يكلّفهم ما لا يطيقون؛ بل عمل على إنشاء الدّواوين والمدارس والمستشفيات، وشعر الناس بعد مدّة بتغيّر الحال، وانتعاش البلاد وكثرة التجار والصناع، وازدهرت الزّراعة، ولمس الناس بحبوحةً في العيش، ورغد، ولم يكلّفوا من الأمر أي أموال كما كان يُطلَبُ منهم في الماضي، فنسي الناس ما كان، وعادةُ الناس النسيان، فلم يعدْ أحدٌ يذكر الشّورى أو أهل الحلّ والعقد الذين لم يظهر منْهم أحد حتّى الشّيخ محمود، ولم يعدْ أحدٌ يتذكّره إلّا سحنون بعضَ الأحيان فيترحّم على أيّامهما معًا، ويتمنّى لو كان معهما فيهنأ بما هُما فيه، ويشاهد الحجّاج صديقهما ومَن تنبأ له من قبْل بعلوّ أمره وتسيُّدِه، وها هو الآن قد تسيَّد الأمر، وتوسّد الحُكم، وتلقّب بالسّلطان حجّاج، وتمنّى لو كان معهما.

وغاب سحنون في مشاغله، وراح يعمل تحت أمْرِ الحجّاج بكلّ عزمٍ وهمّة ونشاط، وكان في جيوشه التي راحت تضمّ أقاليم أخرى للبلاد، ويتوسّع حكم الحجّاج.

* * *

استقرّت الأمور الآن، واستتبّ الأمر، وأضحتْ كلّ مفاصل البلاد في يده، وبات الكلّ يخضعُ له ويهابُه، ولا يحرّك ساكنًا إلّا بأذنه ولا يوقف متحرّك إلّا بأمره، ما يريده لا يحتاج إلّا إلى إشارةٍ فيأتيه خاضعًا ذليلًا، هكذا قال الحجّاج لنفسه وهو يجلس على كرسيّ الحُكم، لكنّه ما لبث أنْ زفر في ضيق يحدّث نفسه.. إنّ كلّ هذا وهي لم تخضعْ له أبدًا، ولم ينلْها كما نالَ الملك والحكم، حدّثته نفسه

بأنْ يعاملها كما يعامل مَن استعصى عليه من الرعيّة، لكن لم يطاوعه قلبُه فهي أرقّ من النّسيم، وأعذبُ من الرّبيع، وليس هكذا تعامل النّساء، لكنّه لم ينلْ منها ما ينال الزّوج من زوجته، وما انفكّت تجابهه، وتُردّد أنّها ليست له زوجة، وقد اغتصب أمرها ولم يكنْ بإرادتها.

صمت.. تحرّك بخطواتٍ بطيئة صغيرة باتّجاه الشّرفة.. زفرَ مفكّرًا، ظهرتْ أمامه حديقة غنّاء غنيّة بشتّى الزّهور والثّمار.. ومن خلفِها على البُعد ظهر المقطّم بشموخه وهيبته، يحتضن مدينته كأنّه يحْميها فتذكّر يومَ خروجه منه لا يعرف مِن أين أتى، أو أين كان، ولا يذكرُ شيئًا قبْله.. جذبَ ناظريْه.. هابَه.. سرحَ فيه فأخذتْه هيبته، شعر أنّه ينجذبُ إلى الجبلِ ويتّحد معه، سَرَى في جسده شعورٌ قويّ بالعزّة والقوّة، تسرّبت إلى قلبه السّعادة، فارتسمتْ على محيّاه، وتشرّبت نفسُه قوّة، شعَرَها تتضاعف فشدّ أعصابَه، واستسلمَ لشعورٍ جميل، راحَ يغْزوه ويلفّه من الخارج كأنّه يحْتضنه، حتّى أيقظَه من نشوته صوتُ حوافرِ خيلٍ تطرق ممرّ القصر، فألقى ببصرِه نحْوهم، فوجد كوكبةً من جندِه يتقدّمهم سحنون فخالجَ نفسه شيء من الكدَرِ أنْ يطرق ممرّ القصر المرمريّ المرْصوف بالرّخام، وقد صفّت على جانبيهِ نخلاتٌ باسقات، وزرع نضيد؛ فقرّر في نفسه أن يمنعَ المشي فيه إلّا مترجّلًا.

أقبلَ سحنون عليه بكامل هيئته وسلاحِه، فألقى عليه تحيّة الملك والسّلطان، ووجهُه يزدهر سعادة. شابَ نفسَ الحجّاج الضّيقُ لكنّه لم يُبْدِه، وسمح له أن يقتربَ ويجلس، وأمر الجندَ أن يجلسوا حيث هُم بآخر ساحة العرش.

- أدام اللهُ على مولانا العزّ والمُلك.

- كيف حالك يا سحنون؟

- في خيرٍ بسلامة مولاي ورضاه.

التزمَ الجدّ وجهه، وهو يستطرد:

- وردتْ أخبارٌ سعيدة عن جيوشنا المتقدّمة نحو بلاد الجنوب بإحرازها نصرًا سريعًا وساحقًا على كلّ البلاد التي مرّت بها، فراحتْ تُذعنُ بالولاء والخضوع لمؤْلانا السّلطان، وأرسلوا الهدايا والعطايا، وهي في الطريق إلى هنا.

أشرقَ وجهُ الحجّاج بالبِشْر والسّعادة، فتحرّك قليلًا على كرسيّه، كأنّه يتأكّد من وجوده فوقه، ثمّ قال:

- سيكون ذلك فألًا سعيدًا على الجميع يا سحنون.

ثمّ استطردَ مداعبًا:

- أما تريد أنْ تغيّر اسمك هذا؟!

ضحكَ سحنون بملء فيه، ثمّ قال:

- يا مولاي، لا أعرف لي اسمًا غيرَه، وأخاف أنْ أغيّره فأتوه ولا أهتدي إلى نفسي سبيلًا.

فعَلَا صوتُهما بالضّحك مقهقهينَ، ثمّ لمعتْ في زاوية عيني سحنون كأنّه تذكّر شيئًا؛ فأكمل:

- لكنْ أعدُك يا مولاي إنْ عاد الشيخُ محمود حنفي، سأطلب منه أنْ يختار لي اسمًا كما فعل معك، فكان فألًا طيبًا.

هاجت نفسُه فهجمتْ عليه الذّكريات دون رَويّة، واقتحمته رغمًا عنه، ومرّت به ذكْراه منذ تعرّف عليه حتى آخر مرّة رآه.. تغيّر حاله واختلطتِ الأحاسيس بنفسه، وسيطر عليها الغضب فتعكّرت صفحة وجهه، لكنّه لزم الصمتَ، فأكمل سحنون متشجّعًا بما لاحظه عليه، ظنًّا أنّه حزينٌ لغيابه.

- ألا تأذنُ يا مولاي بالبحث عنه مرّة أخرى؟

حدجَه بنظرةٍ لم يلحظها سحنون:

- أنا مثلك حزينٌ لغيابه، لكنّي أيضًا غاضبٌ عليه، كيف يغيب عنّي في مثل هذا الوقت؟!

أسرعَ سحنون في الإجابةِ يدافع عن صديقه:

- وهذا ما يقلقني عليه يا مولاي.

قامَ حجّاج من فوق كرسيّه، فَهبَّ سحنون واقفًا، مشى نحو سحنون بخطواتٍ بطيئة بعد أنْ شبّك يديْه خلفَ ظهره في صورةِ المفكّر، حتّى وصل إليه فوضع يدَه على كتفه وهو يقول:

- سأجعلُك أنت رئيسَ فرقة البحث عنه، وسأجنّد لك فرقةً كاملة تكونُ تحت إمارتك توجّهها كيف تشاء.

ثمّ ضربه فوق كتفِه ضربةً خفيفة، وولّاه ظهرَه باتّجاه الشرفة:

- وستبدأ مِن الآن بهذه المهمّة، فأنت الجديرُ عليها.

رفعَ سحنون رأسَه، والسّعادة ترحّب بمحيّاه:

- صدقتَ يا مولاي، وهذا شرفٌ عظيم أنْ أتولّى هذه المهمّة.

قاطعه الحجّاج:

- سأرسل معكَ الآن حاجبي الخاصّ حيث يَدُلّك على الطريق ويُذَلّل لك العقبات.

ثمّ أشارَ له بالانصراف وهو مولّيه ظهره فحيّاه وانصرف.. عاد حجّاج إلى سابق عهدِه قبل أن يقاطعه سحنون، فجارى السّرحَ والتفكير بعد أنْ لامست

يداه حافّةَ الشّرفة، أرسل بصرَه نحو جبل المقطّم بنظرةٍ بها ودّ وعطف.

ظَلَّ بالشّرفة حتى مَلَّ النهار من وجوده، فأخذ يلملمُ ثوبه المضيء، يسحبه رويدًا رويدًا حتّى خلتِ السّماء لليل، فنشر عباءته السّوداء.

لم ينتبه حجّاج لدخول الليل إلّا بعد أن توغّل فيه، فعاودته ذكرياتُ دوريّاته اللّيلية في المدينة لحفظ الأمن، ولاحت ذكرى المرأة التي اتّخذها خليلةً في سابق عهده، فحزَبَ أمرَه وانطلق بعد أنِ ارتدى ثيابَ الفرسان، وتمنطق سيفه وتلثّم.

انسلَّ من الباب الخلفي للقصر دون أنْ يشعر به أحد، وحيدًا دون حرس أو جند، متلفّحًا بعباءةٍ سوداء، ملثّمًا، لا يظهر منه سوى عينيه الحادّتين.. شعرَ بسعادة غامرة وهو يدوسُ شوارعَ المدينة وحواريها مرّة أخرى، ولكنّه هذه المرّة الحاكمُ الأوّل وسلطان البلاد.. وها هي أوامرُه الصّارمة تنفّذ دون إخلال، فقد غرقتِ البلاد كلّها في النوم العميق من بعد صلاة العشاء.. زَهَا بنفسه، وانتشى، وشعر أنّه ملك اللّيل والنهار.. أصابت العدوى فرسَه فراح يختالُ في مشيته الهادئة فتمايلَ يمْنةً ويسْرةً مزهوًّا بنفسه وصاحبه.

وما بَعُدَ غيرَ قليل حتى حانتْ منه التفاتةٌ خلفَه، فلمح في الظلام شبحًا يستترُ بالظلام، يحفّ ظلّه بالسّور حتّى مرق من الباب الخلفي فراعَه ذلك، وراعَه أكثر بصيصٌ من ضياءٍ كان ينيرُ له الطّريق، ثمّ اختفى خلفه.

***

(٢٧)
لقاءُ السّجون

لم يفقْ سحنون من صدمتِه منذ قادَه حاجبُ الحَجَّاج ليسلمه لأحد الجنود الذي ساقَه إلى محْبسه دون أن ينبسَ ببنت شَفَة.. تكوّر على نفسه فضمّ ساقيه، فلصقهما بصدْره، وطوّق يديْه حولهما، ثمّ دفن وجهَه بينهما، وراح يصدر منه نهنهة خفيفة.. ومع كلّ صريرٍ للمزلاج الصّدء لباب زنزانته الخشبي المصمت إلّا من طاقةٍ صغيرة في أعلاه، تفتح في أوقاتٍ معينة يرفع رأسَه نحْو الدّاخل بعد أن يتجدّد الأمل في قلبه بالخُروج.

كان في أوّل الأمرِ يصرخ فيهم ويوبّخهم على خطئهم في حبسه، ويهدّدهم بإبلاغ الحجّاج لأنّه صديقه المقرّب، حتّى صدمه- مرّة- أحدُ الحرّاس بأنّ الحجّاج هو مَن زجّ به في هذا الرّكن المظلم، ومنذ وقتها وهو متكوّر على نفسه، قابعٌ في أفكاره، يكاد يشتّ عقله، حتّى أوْشك على الهذيان.. ذكر في إحْدى المرّات الشيخ محمود حنفي أمامَ حارسه، وتمنّى لو أنّه موجود لسعى في إخراجه، ولنْ يرضى بأن يمكثَ ساعة من نهارٍ في هذا السّجن، فروّعاه أنْ أخبره السّجان ساخرًا أنّ مَن يذكره يقبعُ هو الآخرُ في الزّنزانة المجاورة، ثمّ قهقه وتركَه في بركة أحزانه وصكّ البابَ خلفه.. لم يستوعب في الأوّل فأخذ يهذي، ثمّ عَلَا صوتُه، فراح يصرخُ ويدقّ الجدران والبابَ بقبضتِه حتّى أنْهِك وخارت قواه وسكنَه الهمّ والحزن فتزحزحَ حتّى ارْتكن على أحدِ الجدران، ووسّد رأسه يديْه، وصبّ همَّه وحزنَه في البكاء.

لا يعرف كمّ مرّ عليه مِن الوقت فقد تخطّفه النوم ساعات، واستردتْهُ اليقظةُ لحظات، يدفن همومَه وحزنَه في ظلمات النّوم، حتّى سمعَ صريرَ مِزلاج الباب يتزحزحُ من مكانه على اسْتحياء كأنّه يخشى أنْ يسمعه سامع، وليس مثل كلّ مرّة ينزلج بصريخٍ مدوٍّ، فلم يهتمّ كما عاهدَ نفسه بعد أنْ فقد الشهيّة وركبَهُ الهمّ وتوسّدته الكآبة، حتّى كأنّه ينوي الموتَ دون صوت.

زُحزح البابُ مدفوعًا بقوّة متحكّمة تجعله يتحرّك بثقلِه الكبير في هدوء، فانْفرجَ عن فرجةٍ سمحت بولوجِ شخصٍ منها ما انتبه له إلّا بعد أنْ سمعه يذكرُ اسمَه بوَهَن.

- سحنون.. أيّها الصديق الغالي.

لم يصدّق أذنيْه، سكت، طالَ السّكوت.. تردّدت الأنفاس.. أصاخَ سمعَه.

- كيف حالك يا صديقي؟

ظلّ على حاله لم يحرّك ساكنًا، لكنّ عقله كان يتحرّك بجدّ ونشاط، الصوتُ ليس غريبًا؛ بل مألوفًا لديْه بنبراتِه المفْعَمة ودًّا وحبًّا رغم ما يلفّها من ضعف..

أكملَ صاحبُ الصّوت.

- لا تَنحني الرّووؤسُ إلّا لله.

سرَتْ في جسدِه قشعريرة، وانتفض على أثرها.. هذه جملتُه دائمًا، هل هو؟ معقولة! هل حضرَ لإخراجه؟ لم يتردّد ورفَعَ رأسَه فوجدَه أمامه لا يفصلُ عنه سوى خطوة واحدة.. صرخ باسمه، «الشيخ محمود»، ثمّ هبّ واقفًا وألقى بجسدِه عليه فتلقّاه بين يديه، وكاد يقعُ على ظهرِه لوْلا أن تمالك نفسَه وحرّك قدمه خطوةً صغيرة للخلف.. انْهارَ سحنون في البُكاء، وجسدُه لا ينفكّ ينتفض.

***

(٢٨)
رسالة

دفعَ بابَ حجرتهما عنوةً رغم أنّه لم يكنْ مُحْكَم الغلق، فشهقتا من المفاجأة.. اضطربت إحداهما فتيبّست مكانها كأنّها تمثال نُحت من خشب، ولم تتحرّك، ووَلّتْه الأخرى ظهرَها بسرعة، وهُرعت إلى خمارِها تلتقطه من فوق الوسادة تتستّر به وتسدلُه على شَعرها.. انْحَنت، أخذَهُ انحناؤها بجسدِها اللّدن فتَمَلّى في تفاصيلها وشعْرِها ذي الجدائل الذّهبية الطويلة.. ارتجّ بعضَ الشيء، وهدأ عندما لم يجد غيرهَا وصديقتَها بالحجرة، لكنّه أخذ يلفّ حولهما، وعيناه تبحثان عن أيّ شيء غريب، أو يلفتُ انتباهه، وهو يتحدّث إليهما بلهجةٍ تصَنّعَ الودّ فيها:

- مرحبًا.

ردّت دون أن يَرُدَّها الخوف:

- ما هذا؟!! كيف لك أنْ تقتحم علينا الحجرة بهذه الفظاظة؟

ارتعدتْ صديقتُها ممّا سمعت، وتساءلت في نفسها: كيف لها أن تتحدّث بهذه الطريقة إلى سلطان البلاد!! ردّ ببرودٍ متمالكًا أعصابَه:

- إنّها حجرة زوجتي.

ردّت في تحدٍّ صارخ:

- قلتُها لك ألفَ مرّة.. لستُ بزوجتك.

كادَ يغمَى على صديقتها ممّا سمعت، فتقهقرتْ بضعَ خطوات ولزمتِ الصّمت.

كظمَ غضبَه، لكنّه لم يتراجع، فأكمل:

- لم تُعَرَّفيني بالسّيدة؟

أجابتْ بقوّة:

- متى يتعارفُ الرّجال بالنساء؟!

أجابَها متحدّيًا:

- عندما تكون في بيته ولا يعرفها.

ردّت في حدّة:

- أنا مَن دعوتُها.

- بأي صفة؟

فاجأها سؤاله، وعرفتْ ما فيه من قحةٍ وجرأة.. جاء ردّ صديقتها بنبراتٍ مُرتجفة:

- إنها تنعمُ تحتَ حكم مولاي.

التفتَ إليها؛ فزادتِ ارتجافًا..

- لَمْ تقولي لي مَن أنت؟

جاءه صوتُ علياء في ثبات:

- صديقتي من أيّام الصّبا، وجاءتني زائرة.

- وهل الأصدقاء يأتون متلصّصين في ظلام الليل؟

ردّت صديقتُها، تتّخذ من موقف علياء القويّ القوّة؛ فأجابته:

- منذ مدّة لمْ أرها، وقد استوحشتُها، وعلمت من أمّها أنّها متوعّكة قليلًا، فجئتُها زائرة.

تذكّر أنّ أمّها كانت صباح اليوم عندها فاستطرد:

- ومِن الأبواب الخلفية!!

- هذا الباب قريبٌ من حيّنا؛ فآثرت الرّاحة وعدمَ اللفّ من الباب الأمامي.

قاطعتْه علياء في تحدٍّ، ساخرة:

- هل تريد أن تحقّق في شيء آخر، أم تترك مخدعَ النساء للنساء؟

شعرَ ما في كلامِها من لمزٍ؛ فرسَمَ على وجهه ابتسامةً لا روح فيها، ثمّ استأذن وانصرف. انْهارت صديقتُها بعد إغلاقه البابَ خلفه فسقطتْ على أقرب كرسيّ لها..

- كدتُ أموت في جلْدي.

ردّت عليها دونَ وعي:

- أمقتُه.

- هش، أخفضي صوتَك.

- لا أخافه.

- أنا أخافه.. مَن في البلاد لا يخافه؟!.. إنّه الحجّاج.

لم تردّ علياء، وتفاصيلُ وجهها تنطق بالمَقْت.. تساءلت صديقتها:

- الحمدُ لله أنّه لم يرَ الرّسالة.. أين وضعتِها؟

- دسسْتُها تحتَ الوسادة وأنا أتناول خماري.

- ما جوابُك؟

- انتظري حتّى أقرؤها أوّلًا.

اتّجهت نحو سريرها، ثمّ توقّفت.. لفّت على عقبيها باتّجاه الباب، فتحتْه مرّة واحدة، لكنّها لم ترَ أحدًا.. أحْكمت إغلاقَه.. اتّجهت صوب السّرير.. تناولتِ الرّسالة من تحت الوسادة.. فتحتْها.. تشمّمَتها.. ضمّتها إلى صدْرها.. دبّت الحياةُ في محيّاها وهي تقرأ.. ضمّتها مرّة أخرى وهي تتمتمُ:

- ترجعْ بالسّلامة يا حسن.

***

انسلّت صديقتُها من نفس الباب الخلفيّ عائدة، فما بلغت أطرافَ البلدة حتّى وجدت مَن يحيط بها ويختطّفها.. ابتلعت صرخةً كتمتها يدٌ غليظة.

***

(٢٩)
أرْجعون

لم يصدّق سحنون نفسَه، وقدماه تتعفّر بتراب الطريق وهو ممسكٌ بذيْل ملابس الشيخ محمود كأنّه طفلٌ صغير يتشبّث بأبيه، يملأ صدرَه بالهواء الرّطب المشبَع بنسماتِ فَجرٍ مشرف على البزوغ.

- لا أصدّق يا شيخ محمود أننا خرجنا.

- ما لا يُصَدَّقُ في هذه الأيام كثيرٌ يا سحنون.

- صدقت. مَن يُصَدّق أنّ حجّاج يفعل هذا بأصدقائه؟!!

- لأنّه حجّاج.

قالها بتفكيرٍ عميق.

- أنتَ مَن أطلقت عليه اسمَ حجّاج.

أخرجَ زفرة حارّةً قبل أن يكمل:

- كان نشيطًا، يتمتّع بالنّجابة والشجاعة، تتوسّم فيه الشهامة.. كان مجتهدًا في أن يصنعَ من نفسه شيئًا.. كانت كثرة أسئلته تنبئ بذكاء وَقّاد.. كانت لكلّ فعلةٍ له حُججُّها، فأطلقت عليه اسمّ حَجَّاج.

زفرَ بضيقٍ مرّة أخرى:

- لكنّ الله كان له شأنٌ آخر، فكان كحجّاج الزّمن الأوّل؛ نفسُ بداياته، وها هي سيرتُه تعود من الموت.

أكمل سحنون حديثَ صديقه:

- كنّا نرى فيه الخلاص ممّا كنّا نتجرّعه من ظلم، فكان الظلمَ متجسّدًا في شخص، كان يختفي وراءَ مسوح الكهّان ورداءِ النّدين.

- كنتُ أرى فيه شخصيّةً متميّزة، به صفاتُ القيادة والزّعامة وصدقِ التَعَبّد والالتزام، كأنّه يكفّر عن ذنب مضى، كان حريصًا على أن لا يقترفَ ذنبًا.. فقدّمناه لأنّه أهلٌ للرّئاسة، ورفعناه مكانًا عليًّا فطافَ عليه طائفٌ من الشّيطان، فتلبّسته روحُ الثّقفي[1]؛ فشرّدَ بكلّ مَن وقف أمامه.

- لكنْ كيف رضيَ السّجان أن يُخرجنا من السجن؟!

- هو مِن حيّنا، وكان يتردّد بعضَ الأحيان على مسجدنا؛ فهالَه ما حدثَ لي، وصُدِم بما فعل عودة، فأخرجَنا وهربَ هو.

- وأين سنذهبُ الآن؟

- إلى آمَنِ مكان.

***

هَوى بكلّ قوّته على وجْهِها صافعًا، لم تتحمّل لطمتَه فغابت عن الوعي.. بكلّ حقدٍ حمل دلوَ الماء بنفسه ولم ينتظرْ أحدًا ممّن حوله أنْ يقوم بذلك، ثمّ ألقاه كلّه دفعةً واحدة على وجْهِها فانتفضتْ شاهقةً، تطوح برأسها في كلّ اتّجاه، تستجلبُ الهواء دفعًا للاخْتناق، وتستردّ وعيَها الذي راح يتشكّل أمامَها مشوّشًا، غيرَ مكتمل الرّؤية أو السّمع.. جاء صوتُه إليها من بئرٍ عميق، لا تكاد تبينُ حروفه، لم تشعرْ بتلك اللّطمة الثّانية التي طوّحتها في أعماقٍ مظلمة مرّة أخرى.. لم يفلحْ معها دلْوان من الماء لإفاقتها فظلّت في ظلام اللاوعي. جرّب معها أساليبَ أخرى في الإفاقة حتّى راحت تستجيبُ ببطء.. أرادَ أن يلطمَها مرّة ثالثة غير أنّه تراجع عندما همسَ له أحدُ جنوده بأنّ ذلك قد يقتلها قبل أنْ يعرف منها ما يريد؛ فوقفَ مكانه، وصدرُه يتحرّك انفعالًا.. بعد فترة ليست بالطّويلة استفاقت، وعندما اكتمل وعيُها أجهشتْ بالبكاء وهي تتوسّل بالرّحمة، فجاءها صوتُه غليظًا، تحملُ نبراتُه غضبًا لا محدودًا:

- سؤالٌ واحد فقط أريدُ أن أعرفَه.

ثمّ اقترب منها أكثر، وهو يُكمل، وبكلماتٍ تنضحُ حروفُها التهديدَ أكمل:

- وإذا أجبتِ بالصّدق ذهبتِ مِن هنا إلى دارك، لكن إنْ شممْتُ به كذبًا؛ سأقطع جسدَك قطعةً قطعةً دون رحمة.

ردّت بهلَعٍ وخوف مُحْكم، وفرائصها ترتعد:

- أقسمُ لك سأقول لك الصّدق، كلّ الصدق.

- ما الذي جاء بكِ لزيارة زوجتي في تلك السّاعة المتأخّرة؟

واستطردَ بنبرةٍ شديدةِ القسوةِ انتفضتْ لها:

- ولا تعيدي علَيَّ أنّك أتيتِ للاطمئنان.

ردّت سريعًا والخوفُ يلفحُها:

- الصّدق كلّ الصدق أقول.

- كلّي آذانٌ مصغية.

- الحقّ أنّي كنت أَحْملُ لها رسالة.

انتبهتْ كلّ حواسّه، وتقدّم نحْوها قليلًا، فأكملت تتقافزُ حروفها رعبًا:

- رسالةٌ من ابن عمّها حسن.

اشتعلتِ النيرانُ بجسدِه كلّه، فبدا شواظها تتطاير من عينيه.. شدّ جسدَه وكوّر قبضته وحدجَها ببصره، وهو يقول من بين أسنانه:

- ماذا كان في الرّسالة؟

- يخبرُها أنّه سيعود قريبًا، و...

قطعتْ كلامَها، فصرخَ فيها:

- وماذا؟!!

صراخُه ارتجّت له جنباتُ السّجن المصمتة، فأجابته من فوْرها:

- ويخلّصها ممّا هي فيه.

صمتَ متفكّرًا هنيهة، ثمّ استطرد:

- وماذا؟

- هذا كلّ شيء.. أقسمُ لك.

ما كان في حاجةٍ أن يعرف المزيد، وأيّة زيادة لن تفيدَه، فتركها واتّجه نحو بابِ الخروج، فصرخت فيه:

- أقسمُ لك أنّي قلت لك كلّ شيء بصدق، ولم أخْفِ شيئًا.

ثمّ أجهشتْ بالبكاء عندما وكَزَها ضميرُها، وطاف بخلدها أنّها خانت صديقتَها، والتفتَ هو إليها آمرًا رجالَه بِغِلٍّ:

- اقْتلوها.

صرختْ بهَلَع:

- ما أنا إلّا رسول، وما لي ذنب.. ولقد وعدتني أنْ تعيدني إلى داري!!

قهقَه بغِلّ وهو يجيبها:

- الدّارُ الآخرةُ هي دارُك.

***

لم يتورّع في أنْ يسومها سوءَ العذاب، كلّما ضربها صرخت، فيصرخُ فيها هو أيضًا:

- ذوقي سوءَ فِعْلك.

فتردّ في تحدٍّ:

- ما فعلتُ سوءًا منذُ وعيت.

فيردّ بحِنْق بالغ:

- وما تقولي في اتّصال زوجة برجلٍ غريب!!

- ما كنتُ زوجة، ولا تزوّجت، وما مسّني رجلٌ منذ عقلت.

- وماذا أنا؟

- ظالمٌ غشوم مُغْتصبٌ لحقوق غيرك، وما رضيتُ بك.

انتفضَ جسدُه أكثر، وطاشَ عقلُه بردودِها عليه.. شعرَ بقلبه كمرجلٍ يغلي، وزيادة في القدح والغليان وضعَ غطاءٌ فوقه حتى يكتمَه ولا يسمحُ له بالتّنفيس؛ فباتَ قلبُه كتلةً من جمْرٍ ليس بها ذرّة حبّ، فانْهال عليها ضربًا بيديه الغليظتيْن بأيّ موْضع بجسدِها، فتارةً تأتي الضّربة بذراعها، وتارةً بظهرها أو بطنها أو رِجْلها، حتّى أصابتها ثلاثُ ضربات متلاحقة برأسِها؛ فهَوَت على الأرض ينفرُ الدّمُ مِن فِيهَا وأنفِها وعينيها.

وقفَ عليها وقد شملَه الذّهول بعد أن ذايلَه الغضبُ وما يكاد عقلُه يستوي على أمر، حتّى جاءه صوتُ الخادم على استحياء يتحاشى الدّخول أو دفْعَ الباب.. فتح البابَ بقدْرِ ما جعله يرى الدّاخل كلّه، فطأطأ رأسَه بعد لمحةٍ سريعة، وأخبره أنّ الحاج سعيد القمّاش وزوجَه بالباب، صكّ الباب في وجهِه بعد أنْ أمرَه بإبلاغهم أنّه سيلقاهم حالًا.

لم يغبْ عنهما إلّا بقدر استبدالِه ملابسه، وجاءهما بهيئةٍ متزيّنة هادئ الأعصاب، ثابت الجنان، فرحّب بهما، وعلى ثغْرِه ابتسامةٌ راقية، فصافحَ والدَها وسمح له بالجلوس، وأرادت أمّها أن تستأذن لتذهبَ إليها في حجرتها، فطالَعَهم بوجْهٍ مندهشٍ متسائلًا:

- كيف هذا؟! أليستْ معكما؟!!

فقال والداها معًا:

- مَعَنا؟!

ردّ بكلّ ثقةٍ وثبات:

- نعم. لقد ذهبتْ منذ الأمس مع صديقتِها لزيارتكما.

عَلَتِ الدّهشة على وَجْهَيْ والديْها، فقال الأب:

- بل ما جئنا إلّا لعدم عودة صديقتِها من زيارتها حتّى انتصف النهار، وجاء والداها يسألونَنا عنْها، فجئنا نطمئنّ.

- ما هذا الكلام؟!

ثمّ بأسلوبٍ كاذبٍ أجادَ في تمثيلِه تساءل:

- ماذا يعني هذا؟!! هل وصلتِ الجرائمُ إلى قصر السلطان؟

يوقْع تلك الكلمات على مسامع والِديْها؛ وقعَ قلبُهما هلعًا، فانهارت الأمّ على أقرب مقعدٍ لها، وقال الأبُ متسائلًا:

- ماذا تقصدُ بهذا؟!

بكلّ ثقةٍ وغضب مُصْطنَع:

- لا تقلقا؛ سأنقّب الأرض عنهما، وأقلبُها، ولن تغمض جفنٌ في البلاد إلّا وعندي خبرُهما.

انطلقت الخيلُ تحمل جنودَه، تدوسُ في الحارة تبحثُ وتفتّش عن حسن ابنِ عمّ علياء، فانتهكتْ حرمات البيوت، وألقيت ما تحوي الحوانيتُ في الشّوارعَ؛ فأريقتِ السّوائل وتبعثرتِ الحبوبُ وتكسّرت الأخشابُ وتمزّقت الأقمشة.. يسألون في العلن عن زوجة السّلطان، وفي الخفاء عن ابن عمّها.. حينما أثمرَ بحثُهم عن لاَ شيء؛ أعلنوا مهدّدين كلّ مَن يكتم معلومةً عن علياء بنت الحاج سعيد القماش زوجة السّلطان، أو حسن ابن عمّها ولا يبلغنا بها؛ فقد حكمَ على نفسِه بالموت.

***

في طريق العودة، راحت نتفُ السّحب الدّاكنة تتجاذب لبعضها، فحجبت بعضَ ضوءِ النّجوم.

لم ترتحِ الأمّ إلى كلام الحجَّاج، وصَرَّحت بذلك لزوْجها وهي فوقَ بغلتها:

- قلبي غيرُ مطمئنّ.

ردّ زوجُها وهو متفكّرٌ في كلامها:

- خبرُهُما لا يخفَى عليه.

وصَلا إلى الحارة، كانت هناك حركةٌ شديدة بين خوفٍ وترقّب يكتنفُهما حزن.. جاءه صوتٌ متسائلًا عمّا فعلا؟ فلمْ يردّا.. أخبره أحدُ سكّان الحارة أنّ جنودَ الحجّاج كانت هنا.

وصلا بيتهما، جلس الحاج سعيد القمّاش فوق سلالم البيت أمام الباب.. دخلت زوجُه ثمّ جلست خلفَ الباب الذي كان فاصلًا بينها وبينه.. أقبل عليهما أخوه رضوان يكاد ينكفئ على وجهِه مِن هوْلته، ولسانُه يتعجّل وصوله، فسألهم على بُعد خطواتٍ منهما:

- هل رأيتموه هناك؟

- لعنه الله.

صدِمَ رضوان من ردّ أخيه، جاءه صوتُ زوجته من خلف الباب:

- قتلَها قتلَه الله.

- مستحيل!! إنّه يحبّها!

فنطقَ بها، وأكمل بعد أنْ وصل إليهما، فانكدَّ بجوارهما.. قالت زوجةُ أخيه بعد أن استقرّ:

- أحبّه الشّيطان وأعوانُه.

طافت الكآبةُ والحزنُ على وجه رضوان وهو يتمتم:

- لا تقولي ذلك عنْ حسن.

رفع سعيد رأسَه، وقال بضيق:

- ومالُ حَسن وما نحنُ فيه؟

التفتَ رضوان نحْوه:

- لقد عادَ حسن منذُ ساعة، وعندما علمَ بالأمر لم يُمهل ولم يُهمل، وانْطلق في إثْرِكما.

صرختْ زوجةُ سعيد بخوفٍ وهلع، وهي تتمتم:

- ثُكَلْتُ وَلَدَيّ.

***

نسجتِ السّحب ثوبًا ثقيلًا حجبَ أيّ ضوءٍ يأتي من السّماء، وفشلت دفقاتُ الرّياح المتقطّعة التي راحت تضربُ المدينة من تشتيتها.. فجأة، اكفهرّ الجوّ، وسرتْ فيه سخونة غريبة.

قصد النّاس بيتَ سعيد القماش من كلّ صَوْب عندما علموا باختفاءِ ابنته وصديقتِها وذهابِ حسن إلى قصر الملك ولم يَعْد.. صارت الوفودُ جمهورًا عظيمًا جعلَ الحزنَ في قلبَيْ سعيد وزوجِه يتضاعف، فأخذَ البكاءُ من سعيد، وتملّك منه، والناسُ حولُه بين مواسٍ ومستغرب، فقال أحدُهم:

- كيف زوجُ السّلطان تختفي!!؟

فرَدّ سعيد بعنفٍ صارخًا:

- ليست زوجتَه.

فدارتِ الهمْهماتُ من الحضور، وعلتِ الأسئلة، فأكمل صارخًا:

- نعمْ ليست بزوجه؛ طلبَها فرفضْناه، لكنّه قهرها بسلطانِه وقهَرَنا.

دفنَ وجهَه بين جناحيه، وصوتُ نشيجه يعلو.. انشقّ صوتٌ مألوف لديهم، محبوبٌ، من وسطِ الهمْهمات جعلت كلّ الجموع تصغي.. فجاء صوتُه هادرًا صارخًا وهو يتقدّم نحو سعيد القماش حيث يجلس.. يشقّ طريقه وسط الجموع المتراكمة، وكلّ مَن يراه يوسعُ له الطريق وهُم يلتفّون حوله، وكلماتُ التّرحيب تهتف به «حمدًا لله على السّلامة يا شيخُ محمود»، وهو مستمرّ في خطابه:

- ما يفعله الحجّاج هو إعادةٌ لسيرةِ سرحال، ولكنْ بوجهٍ آخر.

وصلَ حتّى الحاج سعيد، فالتزمه معانقًا، فزاد الحاج سعيد نشيجَه، ولم يستطِع أنْ يسيطرَ على انتفاضة جسده..

- عودة أو حَجَّاج كما أصبح يُطْلِقُ على نفسه بعد أن وصل إلى السّلطة، راح يتخلّص ممّن ساعدوه وأعانوه؛ فقتل البعضَ وسجن الآخرَ، حتّى أنا صديقُه وناصحُه ألقى بي في السّجن، حتّى قيّض الله لي مَن يخلّصني.

في تلك اللحظة، أقبل سحنون، فاستطرد:

- وصديقُه العزيز سحنون، مَن أنقذَه في السّابق وآواه، لم يَسْلَم منْه ومِن بطشه!!

أشارَ سحنون إشارةً عرفها الشيخُ محمود، فانفرجَ ثغرُه بثقة، وأكمل:

- حجّاج وأمثالُه إنْ سكتْنا عنهم مهْما بلغوا من جبروتٍ سيستمرّون، وسيستمرّ أوْلادهم في حُكْمهم بالغيّ والقوّة والظّلم، لا يصدّهم عنها أحد.. اعلموا أنّ الحرية لا تُمنَح، ولا تؤخَذ دونَ مقابل، لكنّها أغلى من الجواهر، ولقد عزمتُ على إنزالِه عنْ منصبه كما رفعناه، ولقد وافقني رجالٌ أحسبُهم من الأحرار المخلصين، ولن نعود إلّا وبلادُنا محرّرة، وأتمنّى أن نكون كلّنا يدًا واحدة؛ من مشرق البلاد لمغربِها، ولا يتخلّف رجلٌ أو امرأة، طفلٌ أو صبي، فإمّا أن ننزله من قصْرِه أو يُنزِلَنا إلى قبرنا، أو نترك له البلادَ يعيش وحدَه فيها، ويحْكُمُ نفسَه.

جاءه صوتٌ يعترضه باتّهام:

- كيف تقول ذلك وأنتَ مَن قدّمته؟

فاتّجه صوبَ الصوت قائلًا:

- عندك حقّ، أنا مَن دفعتُه إلى ارْتقاء القيادة، ولكنْ عندما كان أهْلًا لها.

ثمّ حوّل وجهَه عنه نحو الجماهير:

- ولكنّه تحوّل عنها وابتغى عزّةَ نفسِه وعزَّ المُلك واتّبع هواه، فتشرّبت نفسُه الدنيا، وانحرفَ عمّا خُلق من أجله.

راحَ يديرُ وجهَه في الحضور، وصوتُه يعلو:

- هل هذا عودة الذي تعرفونه!!؟ هل هو ذاك المربّي محفّظ القرآن؟ هل هو الذي أيّدناه وساعدناه حتّى تمكّن من الحُكْم فزجّ بنا جميعًا في بواتق الظلم؟!!

هدرتْ أصواتُ الجموع مدوّية بالنّفي، وهي تتّجه صوب القصر، وفي طريقها تدعو النّاس من كلّ صوبٍ للانْضمام إليهم، فيعلو صوتٌ من هنا، وآخرُ هناك مردّدين كلماتِهم في حماسةٍ وشجاعة.

زادتْ قوّتهم قوّة، وحماستُهم وفْرة؛ إذْ رأوا فرسانًا كُثر يُقبلون نحْوهم مكتملي السّلاح على خيولٍ مسرّجة، ينضمّون إليهم متوجّهين صوبَ القصر، فبانَ فيهم أبناءُ القبيلة المغدورة، تلوحُ في وجوههم عزائمُ الثّأر والانتقام، تحملها شجاعةٌ وإقدام.. فشدّت عزائمهم، وأوقدت الإصرارَ في قلوبهم.

عندما رآهم الشّيخُ محمود ابتسمَ، وهمس:

- هكذا الحقّ يحتاج إلى قوّة تحميه.

ردّد فرسان القبيلة:

- كلّنا معك.. لن نتركَك.. هي حياةٌ واحدة فلنعشْها بعزّة أو نفارقها بعزّة.

تحرّكت الجموعُ صوبَ قصرِه، يتقدّمهم الشيخُ محمود، وبجواره كان سحنون...

كانتِ الحماسةُ تشعلهم، والجرأة تدفعُهم، كما أخذت الرياح تفعل بهم، فبدأ هبوبُها يحرّك ملابسهم، ثمّ اشتدّت فحرَّكتهم، ثمّ جعلت تدفعهم نحْو هدفِهم، فظنّوا أنّ ذلك تأييدًا من الله، فقد كانت الرّياح تهبّ في اتّجاه قصرِ الحجّاج.

تدفّقت الهتافاتُ والصّيحات توقدُ الحماسة في الصّدور، يشعلها غضبُهم على حجّاج، وخوفُهم من تكرار سيرة سرحال وأمثاله؛ فهُم مَن دفعوا بعودة في أوّل الأمر إلى ارْتقاء المناصب، ورضوا به عندما رأوا فيه نموذجًا صالحًا لتولّي الأمر بسيرةٍ حسنة تمنّوها كثيرًا وسَعَوا إليها مرارًا، لكنّه عندما انحرفَ عن الطّريق الصحيح كان لهم أن يقوّموه.

كانتِ الرّياح تزيد من تقدّمهم، وتراكمُ السّحب يزيد سوادَ الليل، فأوْقَدوا المشاعل.. على ضوئها فاقَ عددُهم الاستيعابَ كأنّهم أهلُ المدينة والمدنِ المجاورة معهم.

جعلَ اقترابُهم من القصر قلوبَهم تدقّ، لكن عدم مقابلتهم لأيّ فرْدٍ من الجند جعل دقّاتِ قلوبهم من فرط المجهود ليس إلّا، خاصّة بعد أن رأوا حولَهم بعضَ الأشخاص الذين كانوا يعرفونهم من جُنْد حجّاج، وقد تخلّوا عن زيّهم.. كان أغلبُهم بجوار سحنون وحولَ الشّيخ محمود الذي ابتسمَ إلى سحنون عند

رؤيتهم.

رؤيَةُ المشاعلِ من شُرفات القصر كأنّ بركانًا يقذف حمَمَه نحوه؛ جعلت بركانَ حجّاج يشتعل، فصرخَ في القصر مناديًا على الجُند.. اختطفَ سيفَه بعد أن نزعه من غمدِه، وألقاه أرضًا وهو يتوعّد المشاعلَ وحامليها، بعد أن نعتَهم بأبْشع الأوصاف.

اتّجه- للمرّة العاشرة- نحْو الشّرفة يطالع المُقْبلين نحْوه، ويصرخ في جندِه، لكنْ لم يجبْه إلّا نفرٌ قليل، أقْبَلوا عليه دونَ سلاح، يقودهم الخوف.

- لا أحدٌ هنا يا سيّدي؛ كلّ الجند انْضمّوا إلى الشعب.

ردّ صارخًا:

- لقد جُنَّوا.. هل نسوْا وظيفتَهم الأساسية؟!

- لا يا سيدي، لكنّهم تذكّروا أنّهم منهم أيضًا مهْما تغيّر لباسُهم.

جحظتْ عينا الحجّاج، وبدا فيهما هلعٌ وجنون، فصرخ في الجندي:

- ماذا تقول أيّها المأفون؟

ولم يمْهله إذا طعنَهُ طعنةً صرعتْه في الحال، دفعت بقيّة رفقائه يفرّون من حوله.. أصبح هتافُ الشّعب قريبًا جدًّا، فنظر تجاهَهم؛ فهالَهُ أنْ أصبحوا على أسْوار القصر.. تملّك منه الغضبُ والجنون؛ فهبط الدّرج بسرعة، واتّجه نحْوهم.. حينما حانتْ منه التفاتة بالاتّجاه الآخر لمحَ جبلَ المقطم رابضًا مكانه، يكتفي بالمشاهدة، وكأنّه يسخر منه، فغاظَه ذلك لأنّه كان يعدّه حاميه وراعيه يستمدّ منه القوّة والعظمة.

فجأة، رَدّد الجبلُ هزيم الرّعد كأنّه نداء.. تكرّر الصّدى فاستوقفه، نظرَ نحْوه.. راحت سحبُ الغُبار تتجمّع أمام الجبل، فظهر وجهُه مكفهرًّا، كأنّه غاضبٌ خلفَ الغبار وهو يردّد هزيم الرّعد.. سمع في صداه اسمه يتردّد كأنّ الجبل يدعوه، وقف هنيهةً لكنّ الرّياح لم تمهلْه فاخترقتْ قصره من خلال النّوافذ والشّرفات المفتوحة، وراحت تتلاعب به كتلاعُبِ طفلٍ بدُمية، وبدا كأنّه طفلٌ صغير يُمْسك بتلابيب أمّه يدْعوها لأن تأخذ بيده.. لم يدمْ تفكيرُه كثيرًا، اتّجه نحو الباب الآخر باتّجاه الجبل الذي كان يختفي خلفَ غبار قاتم، وهزيم الرعد مُرْعب، أخافه أنّه هزيم دون غيثٍ ولا حتّى قطرة، لكنّه لم يعطِ أيّة فرصة لقلبه أو عقلِه أنْ يتردّد.. وجد نفسَه منجذبًا نحو الجبل، يَنْشدُ فيه النّجاةَ والحماية، فهو بالأمس كان بابَ دخوله، وهو الآن سيكون بابَ خروجه.

***

تمّت

٣/١٢/٢٠١٨

***

1 الحجاج الثقفي

سيرةُ الكاتب

عمرو خليل العزالي

توبة الحجاج - رواية - دار البشير.

المماليك الجدد - رواية - دار تبارك. (تتوافر نسخة إلكترونية).

دماء على البدلة الميري - مجموعة قصصية.

سيناريو فيلم قصير - تمّ تنفيذه.

إعادة كتابة إحدى مسرحيات علي سالم الطوفان، وتمّ عرضُها.

الفوز أكثرَ من مرّة بجوائز برنامج عصير الكتب.

***

شكر وتقدير

د. أحمــد السعيــد مــراد

أ. أسـامة الـوحـش

أ. خالــد جـــودة

أ. زكـــــــــى خليفـــــة

أ. عصـــــام عبدالحميد

***

الترتيب أبجدى

***